سلسلة الحياة ١٨

الاختيار الأزلي

إسحق إسكندر

سلسلة ١٨

ملء الجباب

العدد الثامن عشر

يناير ٢٠١٠

الاختيار الأزلي

إسحق إسكندر

سلسلة ملء الجباب

صدر منها:

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٩٦٦ / ٢٠١٠

ترقيم دولى : I.S.B.N. 977-17-8263-0

فهرس

استهلال

الحقيقة بحث وليست وصولاً .. كما يكتب الأستاذ «نجيب محفوظ».

وأنا لا أزعم بلوغ الحقيقة.

وإن كانت خدمة الحقيقة هي -للباحثين- أصعب أنواع الخدمات، كما يكتب الفيلسوف الألماني «نيتشه»، فإن خدمة (شرح) الحقائق الإلهية هي **الخدمة المستحيلة لهم**.

لذلك لا أدعي **اجتهاد** الباحثين.

ذلك لأن حقيقة الله الأزلي، وأفكاره ومقاصده المكنونة فيه أزلاً.. معها لا **بحثاً** يجدي.. وإليها لا **وصولاً يُبلغ** (رو٩: ٣٤) (ملحق١).. لولا أن تدارك الله البشر بأمرين:

الأول: إعلانه في كتابه؛ كلمة الله.

الثاني: معونة **روحه**؛ الروح القدس، في فهم هذا الإعلان.

وإن كانت مَلَكَة العقل والتفكير هي ملك مشاعٌ للجميع.. لكل واحد نصيبه منها.. قليلاً كان.. أم كثيراً.. فإني أضع نصيبي المتواضع منها في يد **الروح القدس** .. أستقبل به ما يكشفه لي من كلمة الله.. فأكف عن فطنتي (أم٢٣: ٣).. وعن «كَلاَمِ الْحِكْمَةِ الإِنْسَانِيَّةِ الْمُقْنِعِ» (١كو٢: ٤)..

مستمطراً «الْحِكْمَةُ الَّتِي مِنْ فَوْقُ» (يع٣: ١٧).. لأقدم هذه الوريقات للقارئ العزيز.

وإن كان الفلاسفة -شرقيون وغربيون.. قدماء ومحدثون- الذين تناولوا مواضيع الجبرية.. والحتمية.. والإلزام.. وحرية الإرادة الإنسانية.. والقضاء.. والقدر.. إلخ .. قد اختلفوا فيما بينهم.. إلا أنهم اتفقوا جميعاً في شئ واحد.. وهو وجود منطق ما، استخدموه في بينيان نظرياتهم.. فجاء بنيان معظم هذه النظريات بنياناً منطقياً متماسكاً .. مؤسساً على ما وضعوه من افتراضات ابتدائية.

ومع تقديري لكل نظرية منها.. واحترامي لكل منطق فيها.. إلا أن صليب المسيح لم يدخل في أساس أي نظرية من نظرياتهم.. ولم يُبن عليه أي منطق من منطقهم.

وإن كان في هذه الوريقات بعض المنطق.. فلأني لست فيلسوفاً، يجئ هذا المنطق مؤسساً على كلمة الله.. ولُبّ الكلمة؛ هو **شخص المسيح وصليبه**.. لأن «**شَهَادَةَ يَسُوعَ** هِيَ رُوحُ النُّبُوَّةِ» (رؤ١٩: ٢٠).

كما في موضوع هذا الكتيب -وهو الاختيار الأزلي- تحاشيت تناول الاختلافات التاريخية بين الآباء، والمصلحين المسيحيين الأوائل.. والمستمرة حتى يومنا هذا، بين الطوائف المسيحية.. فليس هذا هو الخط الذي اتبعته حتى الآن.. بالإضافة إلى ترك هذه الاختلافات إلى أفاضل آخرين تناولوها بتفصيل كبير.. إنما هنا أدلي فقط بدلوي.

هذا وأصلي أن يجد القارئ العزيز فيما سيقرأه هنا ما يريح قلبه من جهة إحدى الحقائق الكتابية.. وهي حقيقة **الاختيار الأزلي**.

كما ولتوضح هذه الوريقات - في اجتهاد متواضع - أن الله «**بَارٌّ** فِي

كُلِّ طُرُقِهِ ورحيم في كل أعماله» (مز١٤٥: ١٧) .. إجابة على المتسائلين في (رو٩: ١٩).

ولتكون أيضاً سبباً في دفع نفوس لقبول دعوة الله المجانية المقدمة لها - وللجميع - غير محتجة بزعم أن الله لم يخترها.

تمهيد

هل اختار الله خلائق بعينها، دون غيرها .. أو بعضاً من أي منها دون الآخر .. للاضطلاع بمهمة ما .. أو تحقيق غرض ما .. أو الوصول بهم إلى غاية ما .. سواء كانوا بشراً، أم ملائكة .. شعوباً ، أم أفراداً؟

الإجابة نعم .. الاختيار هو مبدأ كتابي قائم.. يشمل كل التدابير.. قبل الكنيسة وبعدها .. وإن اختلفت نوعيات المختارين المشار إليها .. أو أهداف هذا الاختيار .. أو توقيت حدوثه -إن كان له توقيت- أو أزليته ، قبل كل توقيت .

وكلامنا هنا ينصبُّ:

من جهة النوعية؛ على اتجاه هذا الاختيار الإلهي نحو البشر.

ومن جهة المجال؛ على كونه **للأفراد** .. لا للشعوب.

ومن جهة التحديد؛ على كونه **للبعض لا للكل** (رو٩: ١٦)

ومن جهة التوقيت؛ على كونه **أزلياً** (٢تي١: ١٠).

ومن جهة الغاية منه؛ على كونها الوصول بالمختارين إلى أن يكونوا **«مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ** (المسيح) **لِيَكُونَ هُوَ بِكْراً بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ»** (رو٨: ٢٩).

مع ما يستتبع ذلك بالضرورة من بركتهم بكل بركة روحية في

السماويات في المسيح يسوع (أف١: ٣).. من غفران (أف١: ٧) .. وتبرير (رو٣: ٢٤).. وتبنٍّ (رو٨: ١٧).. وختم بالروح القدس (أف١: ١٣).. وميراث (غل٤: ٧).. ومجد أبدي (١بط٥: ١٠).. إلى آخر ما يصل بهم إلى أن يكونوا عروساً للمسيح (رؤ٢١: ٩).. محضرين له إلى الأبد في ملء الكمال (١تس٥: ٢٣) .. والقداسة.. كعروس «لاَ دَنَسَ فيها وَلاَ غَضْنَ أَوْ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ بَلْ تَكُونُ مُقَدَّسَةً وَبِلاَ عَيْبٍ» (أف٥: ٢٧).

ولما كانت هذه البركات الروحية السامية والفائقة موضوعاً لتأمل كتاب ووعاظ كثيرين..ولا يخلو كتاب روحي أو موعظة منها.. وسبق أن تناولنا بعضها.. لذلك سنكتفي هنا - فقط - بتناول ما يختص بمبدأ الاختيار نفسه.. رغم أن التأمل في تلك البركات يرفع النفس.. وينعش الروح.. ويسمو بها إلى آفاق علا.

وفيما يلي بعض الشواهد الكتابية التي تتناول هذا الجانب من الاختيار.

شواهد كتابية

«مُبَارَكٌ اللهُ أَبُو رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي .... **اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ**، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ، إِذْ **سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ**، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ» (أف ١: ٣ - ٥).

«**مُعَيَّنِينَ سَابِقاً حَسَبَ قَصْدِ** الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ» (أف ١: ١١)

«....**الْمُخْتَارِينَ بِمُقْتَضَى عِلْمِ اللهِ الآبِ السَّابِقِ**» (١بط ١: ١، ٢)

«الَّذِي خَلَّصَنَا وَدَعَانَا دَعْوَةً مُقَدَّسَةً، لاَ بِمُقْتَضَى أَعْمَالِنَا، بَلْ **بِمُقْتَضَى الْقَصْدِ وَالنِّعْمَةِ** الَّتِي أُعْطِيَتْ لَنَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَبْلَ الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ» (٢تي ١: ٩)

«الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ. لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ....» (رو٨: ٢٩)

«رِفْقَةُ أَيْضاً وَهِيَ حُبْلَى مِنْ وَاحِدٍ وَهُوَ إِسْحَاقُ أَبُونَا - لأَنَّهُ وَهُمَا لَمْ يُولَدَا بَعْدُ وَلاَ فَعَلاَ خَيْراً أَوْ شَرّاً لِكَيْ يَثْبُتَ **قَصْدُ اللهِ حَسَبَ الاخْتِيَارِ لَيْسَ مِنَ الأَعْمَالِ بَلْ مِنَ الَّذِي يَدْعُو** قِيلَ لَهَا: إِنَّ الْكَبِيرَ يُسْتَعْبَدُ لِلصَّغِيرِ» (رو٩: ١١)

«وَآمَنَ جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا **مُعَيَّنِينَ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ**» (أع١٣: ١٨)

مقدمة

هل معنى الشواهد الكتابية السابق ذكرها أن الله اختار أناساً -دون غيرهم- منذ الأزل.. وقبل الأزمنة.. للخلاص والحياة الأبدية.. و.. و..؟

الإجابة: **نعم.**

وفي المقابل .. هل اختار الله الآخرين للهلاك الأبدي؟.. والإجابة: **كلا.. وحاشا.**

الخوض في هذا الموضوع مثل الإبحار فوق سفينة في خضمٍّ عسير.. إن مالت يميناً جنحت .. وإن راحت شمالاً شطحت.

وعليها إذ ذاك أن توازن بين تيارات - أو قل - بين اعتبارات عديدة.. لها وزنها المنطقي والعقلاني.. أهمها اعتباران رئيسيان.. يبدوان متعاكسين.. كل منهما له منطقه واجب الاحترام.

أما هذان الاعتباران الرئيسيان في هذا الموضوع، فهما **سلطان الله المطلق.. وعدالة الله المنزهة.**

فسلطان الله المطلق لا نزاع فيه.

وعدالة الله المنزَّهة لا مطعن فيها.

عدا اعتبارات أخرى.. نوجز الكل في اعتبارات سبعة.

الاعتبار الأول

سلطان الله

سلطان الله هو سلطان مطلق في كل مجال.. وفي موضوعنا هنا، هو سلطانه المطلق في اختيار أناس بعينهم -دون غيرهم- ليكونوا قديسين (أف١: ٤).. وتعيينهم أزلاً ليكونوا مشابهين صورة ابنه (رو٨: ٢٩).. وبالتالي للحصول على الميراث الأبدي (١بط١: ٤).. إلخ.. كاستراتيجية أزلية لديه، تسمى في الكتاب المقدس «**القصد**» (٢تي١: ٩).. أو «**رأي مشيئته**» (أف١: ١١).. دونما سبب لهذا الاختيار، سوى هذا القصد الأزلي بالنعمة (٢تي١: ٩).. «حسب **مسرة مشيئته** التي **قصدها** في نفسه» (أف١: ١٠).

والسؤال المطروح: هل من حق الله - منطقياً - أن يفعل هذا، ويختار من يختار طبقاً لرأيه المطلق، وحريته الكاملة، وقصده الأزلي الذي قصده في نفسه، قبل أن يكون هناك مخلوق يشاركه الرأي أو القصد؟

والإجابة: **نعم** .. فهل كان الله قد أخذ رأي أحد قبل أن يخلقه هو.. أو غيره من الخلائق؟.. أم لعله ينتظر حتى يخلق من يخلق، ثم يسأله المشورة.. أو يطلب رأيه للاسترشاد أو المشاركة في اتخاذ القرار، من قبيل الديمقراطية، أو حتى المجاملة، و «جبران الخاطر».. أو ينتظر من هذا المخلوق

-إن كان إنساناً- أن يفعل شيئاً صالحاً يرجح به كفة اختياره الأزلي، من ثم يختاره الله للبركات السابق ذكرها من حياة أبدية.. و.. إلخ.

كلا .. بل من حق الله -**ما دام هو الله**- أن يعمل كل شئ -وليس الاختيار فقط- «حَسَبَ رَأْيِ مَشِيئَتِهِ» هو (أف١: ١١).. دون أن يشير عليه مشير (رو١١: ٣٤).. أو يسأله سائل، قائلاً له: لماذا؟ فيجيبه (رو٩: ٢٠).. أو يختصمه إنسان، فيأتي به إلى المحاكمة (أي٩: ٣٢).. أو يدفعه مخلوق دفعاً، أو يسحبه سحباً، إلى اتخاذ قرار ما.

كما أنه ليس ملزماً أن يقدم تبريراً لما يشاء أو يفعل.. لماذا؟.. لسببين:

الأول: لأنه صاحب **السلطان**.. و «كل أُمُورِهِ **لاَ يُجَاوِبُ** عَنْهَا» (أي٣٣: ١٣).. وإلا ما كان هو الله.

الثاني: أنه **مُحصَّن** ضد اتهامه بوجود الشر في طبيعته، حتى يقدم دفاعه، أو حيثيات مشيئته أو أفعاله.. فهو **كلي الصلاح** (مز١١٨: ١) **وحده** (مت١٩: ١٧).. إضافة إلى أنه «**غَيْرُ مُجَرَّبٍ** بِالشُّرُورِ» (يع١: ١٣).. أي أن الشر وإن كان بعيداً عن طبيعته الصالحة، كقاعدة أصيلة فيه، إلا أنه (أي الشر) أيضاً لا يمكن أن يجرِّبه، أو ينفذ إليه من أي جانب.. فيضعه، من ثم، في موقف اتهام يحتاج إلى دفاع أو تبرير.. **الله منزه عن وجود الشر فيه من الداخل.. وعن نفاذه إليه أيضاً من الخارج.**

والرسول الملهم بولس يحسم بالوحي هذا الاعتبار الأول -وهو سلطان الله المطلق- بقوله: «مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ الَّذِي تُجَاوِبُ اللهَ؟ أَلَعَلَّ الْجِبْلَةَ تَقُولُ لِجَابِلِهَا: «لِمَاذَا صَنَعْتَنِي هَكَذَا؟» أَمْ لَيْسَ لِلْخَزَّافِ **سُلْطَانٌ** عَلَى الطِّينِ أَنْ يَصْنَعَ مِنْ كُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ إِنَاءً لِلْكَرَامَةِ وَآخَرَ لِلْهَوَانِ؟» (رو٩: ٢٠، ٢١).

إن الذين يرفضون فكرة سلطان الله المطلق هذا، يظنون أنهم بذلك يُنزِّهون الله عن الظلم في اختياره البعض دون الآخر للحياة الأبدية.

والحقيقة أنهم -دون أن يقصدوا- ينتقصون بذلك من **جلاله** السامي (مز٨: ١).. **ومجده** الفائق (٢كو٣: ١٠).. **وسلطانه** المطلق (مز١٤٥: ١٣).. **وحريته** الكاملة (مز١١٥: ٣).

إذ لا يليق بالله وجلاله ومجده إلا أن يكون صاحب السلطان المطلق، والحرية الكاملة لكي يقرر ما يقرر -**سابقاً**- طبقاً «لرأي مشيئته» (أف١: ١١) ويتخذ ما يتخذ -**حاضراً**- لتنفيذ «رأي مشيئته» هذا.. محققاً بذلك لا «رَأْيِ مَشِيئَتِهِ» فقط، بل أيضاً «مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ» (أف١: ٥).. كما سيأتي ذكره.

ولما كان الله أزلياً (مز٩٠: ٢)، فإن سابق مشيئته، وأفكاره، ومقاصده، وعلمه، واختياره، وتعيينه (رو٨: ٢٨، ٢٩) كلها، لابد بالتالي أن تكون أزلية.

ولما كان الله أبدياً (مز٩٠: ٢)، فإن هذه المقاصد لابد أن تمضي في طريقها مُنفَّذة إلى الأبد، متخطية كل عوائق في الزمان.

ولما كان الله ثابتاً « لَيْسَ عِنْدَهُ تَغْيِيرٌ وَلاَ ظِلُّ دَوَرَانٍ» (يع١: ١٧)، فإن هذه المقاصد وما يرتبط بها من اختيار.. وتعيين.. و.. إلخ.. لابد أن تكون ثابتة، لا ندامة فيها.. أو تراجع عنها (رو١١: ٢٩).

مع وضع أربع نقاط في هذا «الاعتبار الأول»:

الأولى: لأن هذا الاختيار من مطلق سلطان الله وكامل حريته، فليس للإنسان يد له فيه.. . بمعنى أن الله لم يختر أناساً في الأزل لعلمه

السابق بأنهم سوف يتوبون مستقبلاً.. في يوم لاحق من الزمان القادم.

لأنه إن صح هذا القول -وهو اختيار الله لمن سبق فعرف أنهم سيتوبون مستقبلاً - كانت حرية الله في الاختيار منقوصة.. وسلطانه **غير مطلق.. بل مشروط** بإجراء مستقبلي يقوم به الإنسان.

لذلك يدحض الرسول الملهم بولس بالوحي هذا الفكر -فكر بناء اختيار الله أحداً على أساس أعماله -بقوله: أن «رِفْقَةُ أَيْضاً وَهِيَ حُبْلَى مِنْ وَاحِدٍ وَهُوَ إِسْحَاقُ أَبُونَا . **لأَنَّهُ وَهُمَا لَمْ يُولَدَا بَعْدُ وَلاَ فَعَلاَ خَيْراً أَوْ شَرّاً لِكَيْ يَثْبُتَ قَصْدُ اللهِ حَسَبَ الاخْتِيَارِ لَيْسَ مِنَ الأَعْمَالِ بَلْ مِنَ الَّذِي يَدْعُو** قيل لها: إِنَّ الْكَبِيرَ يُسْتَعْبَدُ لِلصَّغِيرِ» (رو٩: ١٠-١٢).. دونما سبب يقدمه الله لهذا الاختيار، أو حيثية يسوقها، كأن يكون اختياره الصغير للسيادة، دون الكبير، مؤسساً على أعمال لاحقة لأي منهما .. أو مشروطاً بها.. بل هو **مطلق سلطان الله** في اختياره السابق.. وذلك **قبل أن يولدا بعد، أو يفعلا شيئاً .. خيراً أو شراً** [٢].

الثانية: إن معرفة الله السابقة للمستقبل لا تشمل فقط معرفته بالذين اختارهم، بل «مَعْلُومَةٌ عِنْدَ الرَّبِّ مُنْذُ الأَزَلِ **جَمِيعُ أَعْمَالِهِ**» (أع١٥: ١٨).. من **مصنوعات.. وحوادث**.. إلخ.. فهل كانت لهذه **المصنوعات** إرادة أثَّرت على الله في الأزل فجعلته يعملها.. أو صارت لهذه **الحوادث** يد امتدت إلى الخلف، فأحاطت الله علماً بأنها ستحدث مستقبلاً وبالتالي صارت مجرد معلومة فقط عنده؟ .. أم يتوقف جلال الله وسلطانه عند علم المستقبل فقط وما سوف يكون، متحركاً معه كيفما أراد هذا المستقبل بحوادثه أن يتحرك.. دون أن يكون الله نفسه هو المحرك، والفاعل لهذا المستقبل .. كيفما أراد هو له أن يكون، إن كان خيراً.. أو كيفما يسمح هو

له أن يحدث، إن كان شراً.

فـ «**هُوَ يَفْعَلُ كَمَا يَشَاءُ فِي جُنْدِ السَّمَاءِ** (ملائكة كانوا أم أفلاكاً) **وَسُكَّانِ الأَرْضِ** (بشراً كانوا أم خلائق أخرى) **وَلاَ يُوجَدُ مَنْ يَمْنَعُ يَدَهُ أَوْ يَقُولُ لَهُ: مَاذَا تَفْعَلُ؟** (دا٤: ٣٥).

فمقاليد الكون كلها عند أطراف أصابعه.. أو فلنقل عند طرف لسانه.. إن قال: «**ليكن** نور»، «**كان** نور» (تك١: ٣).. قال له قائد المئة: «**قُلْ كَلِمَةً فَقَطْ فَيَبْرَأَ غُلاَمِي.... فَبَرَأَ غُلاَمُهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ**» (مت٨: ٨، ١٣).

معرفة الله إذاً لما سوف يحدث أو يكون، ليست معرفة مسبقة فقط.. بل هي معرفته لما سوف يعمله هو، أو يسمح به، فيحدث أو يكون.. فهو **الفاعل**.. وبالتالي **العالم** لما سوف يفعله.. إذ هو **المتبوع**.. **لا التابع**.. في كل أعماله.

وعلى قياس كونه **متبوعاً لا تابعاً**، في كل أعماله، هكذا معرفته السابقة لمن اختارهم لا تتوقف على ما سوف يعمله هؤلاء.. من ثم اختارهم.

لأنه إن صح تفسير هذه الآية التي تقول: أن «الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ .... إلخ» (رو٨: ٢٩) بأن معرفة الله السابقة بأن هؤلاء سوف يتوبون مستقبلاً هي التي جعلته يختارهم ويعينهم أزلاً.. كان معنى هذا أن المبادرة هي في يد الإنسان .. ساحباً الله خلفه منقاداً **كتابع** .. وليس قائداً **كمتبوع** .. إن تاب الإنسان في الزمان، عينه الله في الأزل!! [٣]

وحيث أنه لا يمكن، ولا يستقيم، ولا يحدث أن كان الله، أو يكون، متحركاً وراء الأحداث، أو تابعاً لأحد في مقاصده، أو رأي مشيئته، أو أفكاره

أو علمه أو تعيينه .. لذلك لا يستقيم هذا التفسير ولا يقوم.

لأنه إن كان الله لا يجيب -مجرد إجابة- على أسئلة بخصوص مقاصده **بعد ثبوتها** فيه أزلاً -كما رأينا - ولا يجيب -مجرد إجابة- على أسئلة بخصوص أعماله **بعد صدورها** في الزمان، فبالأولى كثيراً لا يكون تابعاً لأحد **وقت ثبوت** مقاصده أزلاً (إن كان في الأزل وقت).. ولا منقاداً لأحد **قبل صدور** أعماله في الزمان.

الثالثة: إن صح القول بأن توبة أشخاص في الزمان هي التي حدت بالله أن يختارهم أزلاً، كان الزمن بذلك يسير إلى الخلف .. بمعنى أن يكون لحوادث الزمان أثر رجعي يمتد إلى الوراء .. إلى الأزل السحيق الذي لا بدء له.. ليؤثر إن سلباً أو إيجاباً على مقاصد مكنونة في الله .. قصدها في نفسه (أف ١: ٩).. قبل الزمان والأزمنة (تي ١: ٢).

فهل يعود الزمن للوراء؟ .. وإن عاد -جدلاً- هل يستطيع أن يسافر إلى الأزل السحيق الذي لا بدء له؟

إنه لا أحد .. ولا حدث .. ولا عمل .. ولا شئ يستطيع أن يمتد راجعاً إلى الخلف -فعلاً أو تأثيراً- لاسيما إلى الأزل الذي لا بدء له سوى الله الأزلي الأبدي.

إنه حتى الفكر الإنساني نفسه لا يستطيع أن يسافر إلى الأزل السحيق، إدراكاً .. أو حتى تخيلاً.

هذا الأزل يكتب عنه الرسول العبارة: «قَبْلَ الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ».. والتي ترجمتها الصحيحة؛ «أزلياً قبل الأزمنة» (٢ تي ١: ٩).

يسأل سائل إذاً ما معنى: «الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ..»

(رو٨ : ٢٩)، إن لم يكن المقصود أنه سبق فعرف توبتهم.

والإجابة نجدها في النص ذاته .. الذي لا يقول: سبق فعرف **توبتهم**.. أو سبق فعرف **أعمالهم** .. بل «سبق فعرفهم» **هم بأسمائهم (إش٤٣: ١، رؤ٣: ٥)، والمقصود بذواتهم** [٤] **أزلاً.. من ثم عينهم.**

فالله لا يعين العدم .. ذلك لأنه **لا عدم عند الله** .. فهو «يَدْعُو الأَشْيَاءَ غَيْرَ الْمَوْجُودَةِ كَأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ» (رو٤: ١٧).. فتوجد.. فهل كثير عليه أن يرى غير الموجود كأنه موجود، ما دام قد انتوى أن يوجده؟.. وما دام قد رآه فقد عرفه.. وإن كانت هذه المعرفة، هي **معرفة عمومية لجميع** أعماله وخلائقه.

أما أولئك الذين عرفهم في الأزل، ومن ثم اختارهم وعينهم ليباركهم بكل بركة روحية في السماويات، فهؤلاء لم يعرفهم فقط معرفة عمومية، باعتباره سوف يخلقهم -شأنهم في ذلك شأن باقي خليقته وأعماله- بل عرفهم **معرفة خاصة**.

كيف؟

كان وجودهم الذي سيحدث في الزمان مستحضراً أمامه بكيفية خاصة تختلف عن معرفته السابقة لكل أعماله وخلائقه.

عجيب؟!

وأكثر من عجيب!! .. كان وجود هؤلاء المختارين مستحضراً أمامه **في المسيح** .. بمعنى أنه **رآهم في المسيح** قبل أن يوجدهم في زمان ما .. من ثم **اختارهم فيه** قبل تأسيس الأزمنة، كأشخاص **معروفين بذواتهم** عنده.. ومستحضرين أمامه **-منذ الأزل**، وقبل تأسيس الأزمنة- **استحضاراً**

مواكباً للكينونة الأزلية التي للمسيح .. فيا للانصعاق!!

أية أعمال بشرية إذاً تلك التي تصل بصاحبها إلى حدود هذا الأزل.. أو مشارف هذا المجد.. فتجعله مستحضراً أمام الله بهذه الكيفية؟!

لذلك فهذه المعرفة الأزلية التي لهؤلاء، والتي كانت في المسيح، هي **معرفة خصوصية**، تختلف عن **معرفته العامة** المسبقة لجميع أعماله وخلائقه.

كما أنها تختلف عن معرفته لغير المؤمنين .. كمعرفته ليهوذا .. لأنه «**عَرَفَ** مُسَلِّمَهُ» (يو١٣: ١١).. وأيضاً «عَلِمَ مَنْ هُمُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُهُ» (يهوذا) [٥] (يو٦: ٦٤).

ومع أنه **عرف** هؤلاء الذين لا يؤمنون به (يو٦: ٦٤)، إلا أنه سيقول لهم مستقبلاً: «إِنِّي **لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ!** اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ!» (مت٧: ٢٣).

عرفهم (يو٢: ٢٤، ٢٥ و٦: ٦٤).. **ولم يعرفهم** (مت٧: ٢٣).. الأمر الذي يؤكد أنهما معرفتان.. الأولى **معرفة عامة** لهم، عرفهم بها.. والثانية **معرفة خاصة** ليست لهم، لم يعرفهم بها.. لكن عرف بها فقط الذين اختارهم.

أما إن كان المؤمنون قد عرفوا الله - إذ «هَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ **يَعْرِفُوكَ** أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ» (يو١٧: ٣)- فذلك ليس سبباً لاختيار الله إياهم.. بل هو نتيجة هذا الاختيار.. فهم لم يعرفوا الله إلا لأنه **سبق فعرفهم** .. لذلك يقول الرب: «**أَعْرِفُ خَاصَّتِي (هذا أولاً) وَخَاصَّتِي تَعْرِفُنِي (بعد ذلك)**» (يو١٠: ١٤).. فهو «**يَدْعُو** خِرَافَهُ

الْخَاصَّةَ بِأَسْمَاءٍ » **(أولاً)** (يو١٠: ٣).. قبل أن **تتبعه هي (ثانياً)** (يو١٠: ٤، ٢٧).. **فيعطيها حياة أبدية** (بعد ذلك) (يو١٠: ٢٨).

لذلك لا يقول الكتاب أن الله كان قد **عين (سابقاً)** الذين سوف **يؤمنون (لاحقاً)** لأنهم سوف يؤمنون.. بل «**آمَنَ (لاحقاً)** جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا **مُعَيَّنِينَ (سابقاً)** لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ» (أع١٣: ٤٨) لأنهم كانوا معينين.. فهم الـ «مُعَيَّنِينَ سَابِقاً حَسَبَ قَصْدِ الَّذِي يَعْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ **رَأْيِ مَشِيئَتِهِ**» (أف١: ١١).. وليس حسب أي شئ آخر.

فالتعيين يسبق الإيمان.
والإيمان يلي التعيين.
التعيين سبب الإيمان.
والإيمان نتيجة التعيين.

الرابعة: حرية الله المطلقة -وقبل أن نرى في «الاعتبار الثاني» أنها **تتمشى مع عدالته** - تتمشى أولاً **مع صلاحه** (مز١١٨: ١) و (مت١٩ : ١٧).

فهو وإن كان حراً يفعل ما يشاء .. إلا أن ما يشاؤه، أو بالحري مشيئته، هي **صالحة ومرضية وكاملة** (رو١٢: ٢) على الدوام .. كقوله: «لأَنِّي عَرَفْتُ الأَفْكَارَ الَّتِي أَنَا مُفْتَكِرٌ بِهَا عَنْكُمْ يَقُولُ الرَّبُّ أَفْكَارَ **سَلاَمٍ لاَ شَرٍّ** لأُعْطِيَكُمْ آخِرَةً وَرَجَاءً» (أر٢٩: ١١).. حقاً «**مَا أَكْرَمَ أَفْكَارَكَ** يَا اللهُ عِنْدِي!» (مز١٣٩: ١٧).

فإن كان الله حراً في اختيار أناس طبقاً لسلطانه الأزلي المطلق وحريته الكاملة، فإن هذا الاختيار لن يكون إلا لما هو **صالح** .. أو بالحري **لكل** ما هو صالح.. **ليبارك** من اختارهم «**بِكُلِّ** بَرَكَةٍ رُوحِيَّةٍ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ» (أف١: ٣)؛ من حياة أبدية.. و.. إلخ.

أما أن يختار الله أزلاً -طبقاً لسلطانه المطلق وحريته الكاملة- أناساً للهلاك الأبدي، فهذا ما يتعارض كلية مع صلاحه المطلق، قبل أن يتعارض مع عدالته المنزَّهة.. أو أي عدالة أخرى تحت الشمس.. ذلك لأنه يتعارض أساساً مع ذات طبيعته، وكمال صفاته في إطلاقها.

لهذا نقرأ أن الله .. «**لا يَشَاءُ أَنْ يَهْلِكَ أُنَاسٌ، بَلْ أَنْ يُقْبِلَ الْجَمِيعُ إِلَى التَّوْبَةِ**» (٢بط٣: ٩).. إذ «**يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يُقْبِلُونَ**» (١تي٢: ٤).

بل أكثر من هذا أنه «يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارّاً لاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ» (لو١٥: ٧).

وفي هذا الصدد يتساءل الله: «**هَلْ مَسَرَّةً أُسَرُّ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ؟ أَلاَ بِرُجُوعِهِ عَنْ طُرُقِهِ فَيَحْيَا؟**» (حز١٨: ٢٣).

فإن كان الله **لا يسر بـ -بل لا يشاء أصلاً-** أن يموت الخاطئ ويهلك، بل يريد أن **يخلص الجميع، ويقبلوا إلى معرفة الحق**.. فيكون **فرح** في السماء، فكيف يكون الله -والأمر كذلك- قد اختار أناساً للهلاك الأبدي.

إنه -والحال هكذا- يكون متناقضاً مع نفسه.. ناهينا عن كونه -إذ ذاك- غير صالح.. وغير عادل.. إلخ.. وحاشا أن يكون هذا أو يحدث.. فلا هكذا تكون «**مسرة مشيئته**» .. ولا حتى مجرد «مشيئته».

وخلاصة الاعتبار الأول
وهو سلطان الله

أولاً: لله مطلق السلطان الأزلي في اختيار أناس بعينهم دون غيرهم للحياة الأبدية.. ممارساً في هذا حريته الكاملة.. دون أسباب يقدمها .. أو حيثيات يسوقها، يبرر بها اختياره هذا.. لاسيما وأنه منزه عن الشر أو الظلم أو المحاباة في ذاته.. ومعصوم من دخولها إليه من الخارج.

ثانياً: هذا الاختيار أزلي لا بدء له، ولا رجعة - إلى الأبد- عنه لأي سبب.. وأنه للحياة الأبدية.. كما ولكل بركة روحية في السماويات.

ثالثاً: ليس هناك في المقابل اختيار أناس أزلاً للهلاك الأبدي.. لتعارض ذلك مع صلاح الله.. ومسرة مشيئته.. قبل أن يكون متعارضاً مع عدالته المنزهة.. وكماله المطلق.

رابعاً: ليست لأعمال الإنسان في الزمان يدٌ تمتد راجعة للأزل السحيق لتؤثر على الله في اختياره.. فتجعله تابعاً.. فلا عاد الزمن إلى الوراء .. ولا كان الله تابعاً.. فهو الكائن وحده أزلاً.. والمتبوع وحده أبداً.

خامساً: لو لم يكن هناك اختيار أزلي يمارس به الله سلطانه المطلق.. ينعم به إلى أناس فيباركهم بكل بركة روحية، لشابَ جلاله ومجده نقص في جانب من الجوانب.. وحاشا أن يكون هذا أو يحدث.

الاعتبار الثاني

عدالة الله

إن توقفنا فقط عند الاعتبار الأول وهو؛ **سلطان الله المطلق وحريته الكاملة**، في اختيار أناس بعينهم -دون غيرهم- للحياة الأبدية .. و.. و.. إلخ.. فأين عدالته هنا؟ .. وما ذنب الذين لم يخترهم؟

والإجابة على هذا السؤال نجدها في القصد من الاختيار .. فالقصد هو منح الحياة الأبدية لمن اختارهم (أع١٣: ٤٨).

ولما كانت الحياة الأبدية (وغيرها من البركات الروحية) هي **هبة** من الله .. **وليست حقاً** .. كقول الرسول: «.... **وَأَمَّا هِبَةُ اللهِ** فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ....» (رو٦: ٢٣) .. أما **الحق** فهو؛ «أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ» (رو٦: ٢٣).. لذلك -أي لكون الحياة الأبدية هبة- فهي لا تلزم واهبها؛ أي الله، أن يعطيها للجميع.. إذ لا يشترط في من أنعم على واحد أن يكون ملزماً بالإنعام على الجميع.. طالما لم يغمط حق أحد في الأجرة العادلة.

وقبل أن تعترض عزيزي القارئ، أو حتى تندهش، هيا إلى المثل الذي صاغه الرب في مت (٢٠: ١-١٦).. موضحاً فيه الفرق بين **الحق**، **والهبة**.. بين **العدالة**، **والنعمة**.

في هذا المثل اتفق رب البيت مع الفعلة الذين استأجرهم لكرمه «مع الصبح» على دينار في اليوم.

وفي الساعة الثالثة (ي بعد ثلاث ساعات من هذا الصبح) استأجر آخرين دون أن يتفق معهم على الأجرة.. ثم في الساعة السادسة، وكذلك التاسعة.. وهكذا إلى الحادية عشرة، استأجر آخرين دون اتفاق على الأجرة.

«فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ (أي في الساعة الثانية عشرة) قَالَ صَاحِبُ الْكَرْمِ لِوَكِيلِهِ: ادْعُ الْفَعَلَةَ وَأَعْطِهِمُ الأُجْرَةَ مُبْتَدِئاً مِنَ الآخِرِينَ إِلَى الأَوَّلِينَ. فَجَاءَ أَصْحَابُ السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَأَخَذُوا دِينَاراً دِينَاراً. فَلَمَّا جَاءَ الأَوَّلُونَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَكْثَرَ. فَأَخَذُوا هُمْ أَيْضاً دِينَاراً دِينَاراً. وَفِيمَا هُمْ يَأْخُذُونَ تَذَمَّرُوا عَلَى رَبِّ الْبَيْتِ قَائِلِينَ: هَؤُلاَءِ الآخِرُونَ عَمِلُوا سَاعَةً وَاحِدَةً وَقَدْ سَاوَيْتَهُمْ بِنَا نَحْنُ الَّذِينَ احْتَمَلْنَا ثِقَلَ النَّهَارِ وَالْحَرَّ! فَقَالَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ: يَا صَاحِبُ **مَا ظَلَمْتُكَ!** أَمَا اتَّفَقْتَ مَعِي عَلَى دِينَارٍ؟ فَخُذِ الَّذِي لَكَ وَاذْهَبْ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ هَذَا الأَخِيرَ مِثْلَكَ. أَوَ مَا يَحِلُّ لِي أَنْ **أَفْعَلَ مَا أُرِيدُ بِمَالِي؟** أَمْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةٌ لأَنِّي أَنَا صَالِحٌ؟ هَكَذَا يَكُونُ الآخِرُونَ أَوَّلِينَ وَالأَوَّلُونَ آخِرِينَ **لأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ»** .

فالعقد هو شريعة المتعاقدين.. وطبقاً للعقد أو الاتفاق يأخذ كل طرف حقه المتفق عليه.. فليس هناك إذاً ظلم لمن عمل اثنتي عشرة ساعة وأخذ ديناراً واحداً.. طالما كان هذا هو الاتفاق مع رب البيت.

أما إن كان رب البيت يريد أن **يفعل بماله ما يشاء** .. ويعطي منه **-كهبة-** لآخرين لم يتفق معهم على شئ فهو **حرٌّ** .. وليس للمتعاقد أن يعترض، طالما تم تنفيذ الاتفاق بينه وبين رب البيت.. لقد أخذ حقه المتفق

عليه دون نقص أو ظلم.. «**يَا صَاحِبُ مَا ظَلَمْتُكَ! .... فَخُذِ الَّذِي لَكَ وَاذْهَبْ**» (مت٢٠: ١٣) .. وإن اعترض كانت «عينه شريرة.» .. هذه كلمات الرب.

هب -جدلاً- أن رجل أعمال أراد أن يلقي من أمواله في البحر (كما يقول المثل المصري) -أقول جدلاً- هل يحق لأيٍّ من العاملين لديه أن يعترض.. ربما جاز لأهل بيته، أو ورثته، أو من هم أصحاب مصلحة أن يعترضوا.. أما العاملون بعقود توظيف، أو الفعلة لديه، فلا حق لهم، ولا مصلحة لديهم في الاعتراض، طالما لم يكسر صاحب العمل بنود العقد أو الاتفاق المبرم بين الطرفين.

وإن اعترضوا، ظهروا كأن لهم مصلحة.. دون أن يكون .. وهذا هو الطمع فيما لا يستحقون.. أو العين الشريرة (مت٢٠: ١٥)، التي أشار إليها الرب.

ومع أن الله لا يلقي شيئاً في **البحر** -سوى خطايا التائبين (مي٧: ١٩)- فالرب هو من قال، بعدما أشبع الجموع «اَجْمَعُوا الْكِسَرَ الْفَاضِلَةَ لِكَيْ لاَ يَضِيعَ شَيْءٌ» (يو٦: ١٢)، لا ألقوها في **البحر** .. مع أنه كان قريباً.. إلا أن المبدأ قائم.. وهو حرية الواهب الكاملة في أن يفعل ما يريد بماله.. في **بحر أو غير بحر**.

هكذا في منحة أو «**هبة**» الحياة الأبدية (رو٦: ٢٣).. فلأنها «**هبة**»، **وليست حقاً**، فهي خارج حدود أي عقد، أو قانون، أو اتفاق.. وللمانح الهبة **مطلق السلطان، وكامل الحرية**، أن يوجهها **حيث شاء هو**.. فهي ليست حسب اختيار الموهوبة له، بل حسب **اختيار الواهب لها**.. وإلا ما كانت هبة.

ربما اعترض أيضاً -أو تساءل- قارئ آخر؛ وهل هناك عقد بين الله

والإنسان؟ .. وهل ما سبق وذكرته من أن «أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ» (رو٦: ٢٣) هو عقد بين طرفين.. أم أنه قانون إذعان قسري موضوع من طرف واحد؛ هو الله.. ولا يد للطرف الآخر فيه.. أو مصادقة عليه؟

نقول أنه وإن كان من حق الخالق أن يضع ما يشاء من قوانين من طرف واحد لخلائقه، اعتماداً على عدالته المطلقة المنزهة عن الظلم، وبالتالي لن يكون هناك قسر من جانبه، إلا أن الأمر هنا مختلف.. والقانون المذكور ليس قانوناً موضوعاً من طرف واحد.. ولكنه العقوبة.. أو الشرط الجزائي الذي انتهى إليه عقدٌ كان مبرماً بين الطرفين؛ الله والإنسان.

والحكاية؛ أنه كان هناك تدبير سابق للعهد الجديد، قام فيه عقد بين الله والإنسان.

ودون الدخول في تفاصيل التدابير المتعاقبة في الكتاب، فإن التدبير السابق للعهد الجديد كان تدبير الناموس.. شمل هذا التدبير عقداً بين الله كطرف، وبين أناس يمثلون البشرية كلها كطرف آخر.

من هم أولاء؟.. هم الشعب القديم.

ولماذا هم دون غيرهم؟.. كانوا وقتها أفضل من يمثل البشرية.. لا من حيث تكوينهم، أو طبيعتهم المماثلة في الشر والقساوة (مت١٩: ٨) لجميع البشر (رو٣: ٩-١٢).. بل من حيث أن الله اختارهم كذرية لرجل واحد (إبراهيم).. دعاه الله ليترك أهله وبيت أبيه ووطنه (تك١٢: ١) بكل ما فيه من وثنية وفساد.. وعرفه «لِكَيْ يُوصِيَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ لِيَعْمَلُوا بِرّاً وَعَدْلاً» (تك١٨: ١٩)[٦].. وعمل لذريته سياجاً حتى لا يختلطوا بالأمم عبدة الأوثان (وقتها)، ولا يصاهروهم (خر٣٤: ١١-١٦).. محافظاً بذلك على نقاء عبادتهم.. كي يعبدوا الله الواحد الحقيقي.. بذاته

وصفاته ومطالبه، التي أعلنها لهم -يوماً- بيد موسى (خر٣٤: ٦، ٧) .. ثم ظل يذكرهم بها -بعد ذلك- بفم أنبيائه.. حتى يمكن عندئذ أن يُستأمنوا على أقوال الله (رو٣: ٢) [٧].

فصاروا من هذه الناحية أفضل من يمثلون البشرية كلها.. وليس أفضل البشرية بصفة مطلقة.

أما العقد بين الله وبينهم، فكان ناموس موسى.. وقد تم بموافقتهم الصريحة والقاطعة عندما جاء موسى من الجبل «وَوَضَعَ قُدَّامَهُمْ كُلَّ هذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَوْصَاهُ بِهَا الرَّبُّ **فَأَجَابَ جَمِيعُ الشَّعْبِ مَعاً: كُلُّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ نَفْعَلُ**» (خر١٩: ٧، ٨).. فيما يعني **قبولهم لكل بنود العقد.. وتوقيعهم** عليه.. «**فَرَدَّ مُوسَى كَلاَمَ الشَّعْبِ إِلَى الرَّبِّ**» (خر١٩: ٨).. فيما يفيد **استلام الله النسخة الموقعة منهم** على هذا العقد.

أما بالنسبة للعقوبات الواردة في هذا العقد فقد صادق الشعب عليها أيضاً.. كيف؟

وضع الله قدامهم البركة إذا سمعوا لوصاياه.. واللعنة إذا لم يسمعوا لها (تث١١: ٢٦).

وأوصاهم أن يقف هؤلاء (ستة أسباط) على جبل جرزيم -بعد أن يعبروا الأردن- لكي يباركوا الشعب، وهؤلاء (الستة الأسباط الأخرى) يقفون على جبل عيبال للعنة .. «فيُصرِّح اللاويون ويقولون لجَمِيعِ قَوْمِ إِسْرَائِيل بِصَوْتٍ عَالٍ: مَلْعُونٌ الإِنْسَانُ الذِي يَصْنَعُ» كذا.. وكذا.... «**مَلْعُونٌ مَنْ لا يُقِيمُ كَلِمَاتِ هَذَا النَّامُوسِ لِيَعْمَلَ بِهَا. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ**» (تث٢٧: ١١- ٢٦).

ثم فصَّل لهم اللعنات تفصيلاً دقيقاً في (تث٢٨: ١٥-٦٨).. والتي تحل جميعها على الرجل الذي ينصرف قلبه عن الرب.. وصولاً إلى أن «**يَمْحُو الرَّبُّ اسْمَهُ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ**» (تث٢٩: ١٨-٢٠).

فلما عبروا الأردن بنى يشوع مذبحاً للرب في جبل عيبال (جبل اللعنة) وجميع الشعب وقفوا «نِصْفُهُمْ إِلَى جِهَةِ جَبَلِ جِرِزِّيمَ، وَنِصْفُهُمْ إِلَى جِهَةِ جَبَلِ عِيبَالَ .... وَبَعْدَ ذلِكَ قَرَأَ جَمِيعَ كَلاَمِ التَّوْرَاةِ: الْبَرَكَةَ وَاللَّعْنَةَ, ... لَمْ تَكُنْ كَلِمَةٌ....لَمْ يَقْرَأْهَا» (يش٨: ٣٠-٣٥).

وقبولهم هذا التكرار كان **إقراراً ثانياً** بقبولهم السابق أن يكونوا طرفاً في عهد الناموس.. **وتأكيداً** لمقولتهم السابقة: «**كُلُّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ نَفْعَلُ**».. **وتوثيقاً** لتوقيعهم السابق على هذا العقد.. **وتذكيراً** لهم بالبركات واللعنات (يش٨: ٣٠-٣٥).

وماذا بعد؟

كسر الشعب المختار هذا العقد.. أي الناموس؛ ناموس موسى.

فإن كان الشعب المخصص والمفرز للرب ولعبادته، قد كسر الناموس، وخالف بنود العقد، فما الذي يمكن أن يقال لو أن الناموس أعطي للعالم أجمع في وثنيته وقتها.. لا شك أن كسر الناس للناموس كان سيكون أفدح.. إن جاز لنا وضع درجات لكسر الناموس.

فلما فشل الشعب القديم - ممثلاً للبشرية كلها - في حفظ الناموس، اعتُبرت البشرية كلها فاشلة.. وترتب على هذا فسخ العقد.. وانتهاء العهد الأول (عب٩: ١ و ٨: ١٣).. مع بقاء بنود العقوبة سيفاً مصلطاً على الشعب القديم.. وعلى من كانوا يمثلونهم من أمم الأرض.

وهكذا بخطيته الفعلية ختم الإنسان على استحقاقه لعقوبة الموت أجرة لهذه الخطية.. وتطبيقاً لحكم الناموس.. كشرط جزائي.. هو ما تبقى من العقد المتفق عليه.

بعد ذلك بدأ عهد جديد نُحّي فيه الإنسان جانباً، بعدما ثبت فشله.. وبالتالي لم تكن هناك حاجة لوضع ناموس إلهي آخر بين الطرفين؛ الله والإنسان.. نظراً لثبوت عجز الإنسان وفشله .. مدة خمسة عشر قرناً من الزمان، كطرف في العهد القديم.. كما في كل عقد مفترض أن يستجد .. ولو تكررت العقود ملايين المرات..ولم يبق بعد ذلك من العقد المتفق عليه سوى **العقوبة واللعنة** لكاسري هذا العقد.. تلك التي **لخصها** موسى: «**يَمْحُو الرَّبُّ اسْمَهُ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ**» (تث٢٩: ١٨-٢٠).

وكرر ذكرها أنبياء العهد القديم.. ومنهم أرميا -على سبيل المثال- إذ كتب على فم الرب «وَأَدْفَعُ النَّاسَ الَّذِينَ **تَعَدُّوا عَهْدِي الَّذِينَ لَمْ يُقِيمُوا كَلاَمَ الْعَهْدِ الَّذِي قَطَعُوهُ أَمَامِي**.... لِيَدِ أَعْدَائِهِمْ وَلِيَدِ طَالِبِي نُفُوسِهِمْ فَتَكُونُ جُثَثُهُمْ أَكْلاً لِطُيُورِ السَّمَاءِ وَوُحُوشِ الأَرْضِ» (أر٣٤: ١٨-٢٠).. وأوجزها أيضاً رسول العهد الجديد بولس، في النص: «**لأَنَّ أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ** » (رو٦: ٢٣)

فهي ليست إذاً قانون إذعان جديداً موضوعاً من طرف واحد؛ هو الله.. بل هي خلاصة ما انتهى إليه العقد المتفق عليه بين الطرفين في العهد القديم .. والمآل الحتمي لفشل أحد أطرافه (وهو الإنسان).. والعقوبة العادلة لكسر عهده مع الله.. وتعديه على وصاياه المتفق عليها.

لكن لماذا فشل الإنسان؟.. لأن طبيعة الله القدوس شئ، وطبيعة الإنسان بعد سقوطه شئ معاكس تماماً.. لأن الإنسان الطبيعي لا يستطيع أن يرضي الله.. حتى لو أراد.. «لأَنَّ اهْتِمَامَ الْجَسَدِ (الخطية الأصلية

في الإنسان) هُوَ عَدَاوَةٌ لِلّٰهِ إِذْ لَيْسَ هُوَ خَاضِعاً لِنَامُوسِ اللهِ لأَنَّهُ أَيْضاً لاَ يَسْتَطِيعُ (أي حتى لو أراد). فَالَّذِينَ هُمْ فِي الْجَسَدِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُرْضُوا اللّٰهَ» (رو٨: ٧، ٨) [٨].. الأمر الذي جعل مفكراً كبيراً مثل الدكتور «**طه حسين**» يكتب مندهشاً من النفس البشرية «**التي ترى الخير ولكنها لا تجد إليه سبيلاً .. وترى الشر ولكنها لا تجد منه مخرجاً**».. أما الزعيم «**سعد زغلول**» فكتب: «**ويل لي.... على تمكن الفساد من نفسي ورسوخ أصوله في قلبي**».. فيما يقترب من كلمات الرسول بولس: «وَيْحِي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُنِي مِنْ جَسَدِ هَذَا الْمَوْتِ؟» (رو٧: ٢٤).. هذا رأي الصادقين مع أنفسهم من عمالقة الوحي .. والأدب .. والسياسة.

وما كان إعطاء الناموس للإنسان من الله، وهو يعلم مسبقاً فشله تحت الناموس، إلا سداً لذريعة ادعاء الإنسان بقدرته على تنفيذ الناموس.. وإثباتاً لفشله.. حتى يستد كل فم (رو٣: ١٩).

أما إن رفض واحد أن يقبل تمثيل الشعب القديم له [٩].. معتبراً أنه لم ينتخبهم ليمثلوه .. وبالتالي يرفض اعتبار فشلهم تحت الناموس فشلاً شخصياً له.. ويطالب بأن تتاح له الفرصة شخصياً لينفذ الناموس.. متناسياً أنه من نفس الجنس البشري الساقط .. نقول له: مرحباً.

وهذا ما حدث فعلاً من شاب جاء إلى الرب يسوع سائلاً إياه: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟» (مت١٩: ١٦).

تجاهل الشاب ناموس موسى، وأغمض الطرف عن فشل الشعب تحته .. وطالب بناموس جديد بقوله: «**أَيَّ صَلاَحٍ**».. كما لو لم يكن الناموس قد سبق وقرر هذا الصلاح المطلوب.. كما وطلب أن يكون هذا الناموس على **مقاسه هو** بقوله: «**أَعْمَلُ**» أنا.. وليس الشعب.. كما لو كان الناموس لم ينص على ما هو مطلوب منه كواحد من الشعب.

فقال له الرب -ويا لأناته- «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا» (مت١٩: ١٧).. أي أعاده الرب إلى وصايا ناموس موسى، الذي أراد الشاب أن ينتصَّل منه **كلية**.. باحثاً عن ناموس جديد.. بينما «إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ» (مت٥: ١٨).

ولما لم يتمكن الشاب من التنصل من الناموس كله، أراد أن يتنصل من **بعضه** .. فسأل الرب «**أية** الوصايا» (ع١٨).. بمعنى أنه يريد **بعض** الناموس، لا كله.. فذكره الرب بالوصايا.. وصولاً إلى «.... وَأَحِبَّ قَرِيبَكَ[١٠] كَنَفْسِكَ» (ع١٩).. «قَالَ لَهُ الشَّابُّ: هَذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي. فَمَاذَا يُعْوِزُنِي بَعْدُ؟» (ع٢٠).

ولأن الرب فاحص القلوب (مز٧: ٩)، ويعرف إن كان هذا الشاب قد حفظها بالكلام أم بالعمل، أجابه بالقول: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلاً (كمالاً عملياً لا نظرياً) فَاذْهَبْ وَبِعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ وَتَعَالَ اتْبَعْنِي» (ع٢١).

عجيب!!.. أهذا أيضاً ضمن وصايا الناموس المتفق عليه نصاً.. كلا طبعاً.. لكنه روح الناموس القديم.. أو أي ناموس إلهي جديد، يوضع لهذا الشاب.. أو لغيره.. كيف؟

النص يقول: «وَأَحِبَّ قَرِيبَكَ **كَنَفْسِكَ**».. فيما يتضمن -روحاً لا نصاً- أن يبيع الغني ما عنده ويعطي قريبه الفقير ليتساوى ما عند الاثنين.. أو يظل يعطي أقرباءه الفقراء.. إلى أن يتساوى الجميع فيما يملكون (طبقاً لنظرية الأواني المستطرقة.. ولكن في الأموال).. حتى يكون ما لديه من مال لنفسه مساوياً لما لدى قريبه تماماً.. **كما لو كان قريبه هو نفسه**.. وإلا فما معنى **كنفسه**؟

طالب الشاب بناموس خاص به.. مظهراً استعداده لتنفيذه.. غير عارف، أو معترف، بأن سابقيه من الشعب قد فشلوا.. وبأنهم السابقون، وهو من اللاحقين.. فاقتاده الرب إلى روح الناموس القديم ..وروح أي ناموس جديد يوضع -جدلاً- خصيصاً لأي شخص.. «**لأَنَّ كُلَّ النَّامُوسِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يُكْمَلُ تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ**» (غل٥: ١٤).

قدم الرب للشاب ما أراد أن يعرفه حتى ينفذه.. ووضعه أمام ما هو مطلوب منه شخصياً -روحاً لا نصاً- ليضطلع به.

فهل نجح الشاب في تنفيذ المطلوب؟.. كلا.. لا نجح في التنفيذ.. ولا حتى شرع فيه.. «فَلَمَّا (أي بمجرد أن) سَمِعَ الشَّابُّ الْكَلِمَةَ مَضَى حَزِيناً (اقتناعاً بعجزه) لأَنَّهُ كَانَ ذَا أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ» (ع٢٢).

فمعرفة النص شئ.. وتطبيقه عملياً شئ آخر.

وإليك أنت يا عزيزي المعترض والمطالب بناموس جديد خاص بك.. والمعتبر أنه لا شأن لك بمن فشلوا تحت ناموسهم.. ها هو الناموس الجديد[11].. والقديم في الوقت نفسه.. بل والوحيد في جعبة الله؛ «**تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ**» (غل٥: ١٤).. فهل تستطيع التنفيذ؟

وهل تستطيع أن تساوي نفسك بالفقراء فتبيع مالك وتوزعه عليهم، بدافع من محبة قلبية لهم، تتساوى مع محبتك لنفسك؟

ترد على قائلاً: وأنت أيها الكاتب، هل تستطيع؟

أقول لك: كلا.. لا أستطيع تنفيذ هذه الوصية.. ولا غيرها، **ناموسياً**.. لكني بخلافك .. أنت تطلب ناموساً لتنفذه.. أما أنا فلا أطلب.. لقد اقتنعت -بسهولة، أو بصعوبة.. من زمن بعيد، أو قريب- بفشل الإنسان عموماً تحت

الناموس، وفشلي أنا خصوصاً.. وسلمت بعجز الإنسان عموماً، وبعجزي أنا خصوصاً عن تنفيذه.. أو تنفيذ أبسط وصية فيه.. وقبلت حكم الموت الذي أقره الناموس على العاجزين أمثالي.

ولما كان المسيح قد مات بدلاً مني طبقاً لهذا الناموس.. ونُفِّذَ فيه الحكم.. تم فيَّ أنا أيضاً حكم الناموس (رو٨: ٤).. إذ احتُسب موته، تنفيذاً لحكم الناموس فيه -كحامل لخطاياي (إش٥٣: ٦)- هو موتاً لي، تنفيذاً لحكم الناموس فيّ كخاطئ.

ولما مت مع المسيح شرعاً واحتساباً (لا واقعاً وفعلاً)، لم يبق لهذا الناموس **عقوبة ينفذها هو عليّ**، عدلاً منه.. **ولا نصاً أنفذه أنا له**، التزاماً مني به كناموس.

وهذا هو معنى العبارة الواردة في (غل٢: ١٩) «لأَنِّي مُتُّ بِـ النَّامُوسِ لِـ النَّامُوسِ».

«مُتُّ بِـ النَّامُوسِ»؛ بمعنى مُتُّ بواسطته .. أي أنه كان السبب في موتي.. من ثم **تم تنفيذ عقوبته فيَّ.. ولم تبق له عقوبة ضدي**.. ذلك لأن الحكم الصادر ضدي بالموت لا ينفذ مرتين.. بل مرة واحدة.. وهذا قد تم تنفيذه بموت المسيح عني «مرة واحدة» (رو٦: ١٠).

وأيضاً «مُت لِـ النَّامُوسِ» .. لأنه لما نُفذ فيَّ حكم الموت تطبيقاً لعقوبته، وتم هذا التنفيذ بموت المسيح، وموتي معه شرعاً.. **لم يبق للناموس بعدئذ مطلباً لدى، أو نصاً أنفذه أنا له**.. فالناموس لا يطالب الموتى.

موتي الشرعي مع المسيح إذاً **أسقط العقوبة عني من ناحية**..

وأوقف النصوص المطالبة لي من الناحية الأخرى.

فالموتى لا يُعاقَبون .. والموتى لا يُطالَبون

وهذا هو المعنى **المزدوج** للنص أن؛ «النَّامُوسَ يَسُودُ عَلَى الإِنْسَانِ (فقط) **مَا دَامَ حَيّاً**».. يسود مطَالَبةً .. ويسود عقوبةً.

لقد مُتُّ الموت الذي يؤكد خروجي تماماً من تحت السلطان المزدوج للناموس.. التزاماً.. وعقوبة.

وهكذا أجد نفسي حراً من الناموس.. لأني «**مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لاَ أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ**» (غل٢: ٢٠).

أحيا.. لا تحت الناموس -راجعاً إلى سلطانه- ولا حتى **أنا** الذي أحيا الحياة المطلوبة، ولو كانت بعيداً عن سلطان الناموس.. **بل المسيح هو الذي يحيا فيّ**.. فأجدني أنفذ ما يطلبه الله مني في العهد الجديد.. والذي هو أسمى بما لا يقاس مما كان يطلبه ناموس موسى (مت٥: ٢١، ٢٢.. وهلم جرا).. ولكن:

أولاً: بقوة المسيح فيَّ.

وثانياً: ليس تحت امتحان ناموسي.. إن نجحت فيه، نلت الحياة.. وإن فشلت، حقَّ عليَّ الموت.. بل لأني **نلت الحياة .. بعدما أماتني الناموس**.. جاءت بعد ذلك ثمار هذه الحياة.

والنتيجة: أنه لا أحد استطاع - أو يستطيع - أن يكمل (ينفذ) ناموس الله.. ولا أحد استطاع أن ينال البر، أو أي بركة، بالناموس.. «لأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ كُلُّ ذِي جَسَدٍ لاَ يَتَبَرَّرُ أَمَامَهُ» (رو٣: ٢٠).. «لأنه إِنْ كَانَ بِالنَّامُوسِ بِرٌّ، فَالْمَسِيحُ إِذاً مَاتَ بِلاَ سَبَبٍ» (غل٢: ٢١).

خرجنا عن موضوعنا.. للرد على المعترض.. فإن عدنا إلى نص العقوبة وهو؛ «أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ **مَوْتٌ** » (رو٦: ٢٣)، وجدنا أن الله عندما يعاقب الخاطئ على خطاياه لم يتخلَّ عن عدالته.. بل بالعكس هي قمة العدالة في تنفيذ بنود **الاتفاق**.. «يَا صَاحِبُ مَا ظَلَمْتُكَ! أَمَا **اتَّفَقْتَ** مَعِي» (مت٢٠: ١٣) على الأجرة.

والأجرة العادلة المتفق عليها في موضوعنا -كما رأينا- هي أجرة الخطية، أي **الموت** .. **والموت الأبدي**.

وإذ أخطأ الجميع (رو٥: ١٢).. فالجميع إذاً يستحقون المعاملة بالعدل.. ونوالهم الأجرة المشار إليها بالقسط [١٢].. وتنفيذ العقوبة عليهم طبقاً للقانون؛ «أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ».. وصار الجميع بذلك مستحقين للهلاك.. فإن كان صاحب الهبة -بنعمته- يرحم من يرحم ويتراءف على من يتراءف (رو٩: ١٥).. فيختاره لينقذه من العقوبة.. مانحاً إياه الهبة.. فبالإضافة إلى ما ذكرناه - من أنه ليس ملزماً أن يعامل الجميع بالرحمة فيمنحهم الهبة- نقول: أنه لم يظلم الذين لم يعاملهم بالرحمة، وتركهم للجزاء **العادل** .. ما دام **جزاءً عادلاً**.. **لا شبهة فيه لأي ظلم**.

نأتي الآن إلى معترض آخر يقول «خلاص» علمت أن الأجرة العادلة هي الموت.. وأن **الهبة** هي الحياة الأبدية.. وأدركت أن الهبة لا تلزم واهبها أن يعطيها للجميع.. فما ذنبي إن كان الله لم يخترني لمنحي هذه الهبة؟ .. ألا يُعدُّ ظلماً إن تركني الله لجزائي العادل فعاملني بالعدل دون المختارين.. ولم يخترني للمعاملة بالرحمة، فيمنحني الهبة مثلهم؟

نقول له: ومن أدراك أنك غير مختار للرحمة.. بل متروك للعدالة؟.. هل أوتيت علم الله؟.. أم سافرت إلى الأزل واطلعت على السجلات، إن

كانت هناك سجلات؟.. هل أتيت إليه طالباً رحمته ورفضك.. بحجة أنه يرحم من يرحم، وأنك غير مختار لهذه الرحمة؟

إن الدعوة مقدمة **للجميع** .. وأنت واحد من الجميع .. «**تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ وَأَنَا أُرِيحُكُمْ**» (مت١١: ٢٨).. «**اِلْتَفِتُوا إِلَيَّ وَاخْلُصُوا يَا جَمِيعَ أَقَاصِي الأَرْضِ**» (إش٤٥: ٢٢).. «**لأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ**» (مت٢٠: ١٦).

فمن يلبِّي الدعوة، يكتشف بعد قبولها أنه ضمن القليلين **المختارين**.. لكن قبل قبولها هو ضمن الكثيرين **المدعوين**[١٣].. أو بالحري ضمن المدعوين.. وهم الجميع (مت١١: ٢٨) و(إش٤٥: ٢٢).

أما من لا يلبِّي الدعوة، فمن أين له أن يعرف إن كان مختاراً أم لا؟.. لذلك لا يحق له -أو لأي أحد- أن يرفض الدعوة بزعم أنه غير مختار.

نأتي الآن إلى معترض آخر يقول: «أنت تتكلم عن الفرد.. ولأنه لا يعلم إن كان مختاراً أم لا، **فعليه** أن يقبل الدعوة.. ما دامت قد قُدمت له.. وقد يقبلها فيكتشف أنه ضمن المختارين للمعاملة بالرحمة.. لكن ما قولك في جماهير غفيرة بخلافه، واقعة تحت مظلّة العدالة لا الرحمة لأنهم غير مختارين؟.. نريد قاعدة عامة تنسحب على الجميع لا على الفرد.

ولهذا الشخص نقول:

أولاً: أن الدعوة مقدمة لهم جميعاً ، كما سبق ذكره (إش٤٥: ٢٢).. وما ينطبق على الفرد ، ينطبق على الجميع.. فيما ينفي عذر الجميع لعدم قبولها.

ثانياً: لم يختر الله أحداً، أو مجموعة لوضعها تحت مظلة العدالة.. بل اختار فقط من يرحمهم واضعاً إياهم تحت مظلة النعمة.

ثالثاً: نوجه هذا المعترض إلى موقف الرب من بطرس.. عندما حشر نفسه في موضوع يخص شريكه في الرسولية يوحنا.. فقال له الرب: «مَاذَا لَكَ (بمعنى وانت مالك).. اتْبَعْنِي أَنْتَ (بمعنى كن فيما يخصك فقط ولا شأن لك بيوحنا)» (يو٢١: ٢٢).. وكأني بالرب يقول لهذا المعترض: «وانت مالك.. لا شأن لك بغيرك.. فرداً كان أم جماهير .. كن فيما يخصك فقط.. واتبعني أنت».

فهل تجعل من نفسك عزيزي المعترض مفتشاً على أفكار الله.. مراجعاً أعماله.. محاسباً إياه على شئون لا تخصك؟.. أم تناقشه وتجادله (رو٩: ٢٠) .. لاسيما في أمور غيرك.

وهل يُرضي أمثال هذا الشخص من المعترضين -فيكفوا عن اعتراضهم- إن لم يعامل الله أحداً طبقاً لرحمته .. فلم يرحم الجميع .. ولم يمنح أحداً هذه الهبة.. وطبّق عدالته على الجميع.. ونفذ فيهم جميعاً عقوبة الهلاك الأبدي؟

إن قالوا: نعم.. فقد كشفوا عن شر قلوبهم (مت١٢: ٣٥)، وعيونهم (مت٢٠: ١٥).. وإن قالوا: لا.. قلنا اتفقنا.

كما وأنه إن طبّق الله عدالته على الجميع - في هذه الحالة - فأهلكهم هلاكاً أبدياً، جزاء عادلاً يستحقه الجميع.. طبقاً لرغبة هؤلاء المعترضين.. فأين يكون موقع رحمته ونعمته؟ .. أليس في الذين اختارهم للرحمة؟

أم لعله يُرضيهم -فيكفوا عن الاعتراض- إن عامل الله الجميع بالرحمة -**ملزماً بذلك** - حتى يكون من وجهة نظرهم عادلاً

فإن كان الله **ملزماً** -إلزاماً- أن يختار الجميع للرحمة.. خائفاً من اتهامه بعدم العدالة .. **فأين سلطانه وحريته؟** .. أم لعله يخاف ممن يتهمونه .. عاملاً اعتباراً لاتهامهم .. لا اعتباراً لمجده وجلاله .. كما سبقت الإشارة؟

رحمة الله لا تسمح بإهلاك الجميع.. فهو «يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ» (اتي٢: ٤).

وسلطان الله لا يجعله ملزماً برحمة الجميع.. فهو؛ «يرحم من يرحم ويتراءف على من يتراءف» (رو٩: ١٥).

خلاصة الاعتبار الثاني
وهو عدالة الله

أولاً: الاختيار هو **للهبة** (أي للحياة الأبدية).. وليس **للحق** (أي للأجرة المتفق عليها).. والهبة لا تلزم واهبها أن يعطيها للجميع .. بل يعطيها الواهب **طبقاً لمشيئته هو** .. وليس طبقاً لمشيئة آخر.. وإلا ما كانت هبة.

ثانياً: **الحق** هو في تطبيق النص، الذي هو في حكم المتفق عليه بين طرفين -الله والإنسان- وهو؛ «أُجْرَةَ الْخَطِيَّةِ هِيَ مَوْتٌ» (رو٦: ٢٣).

ثالثاً: لو طبّق الله عدالته على الجميع -فأهلكهم أبدياً- لتعارض هذا مع رحمته.. فهو «يُرِيدُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ» (١تي٢: ٤).

رابعاً: لو طبّق الله رحمته على الجميع -مُجبراً وملزماً.. حتى لا يُتّهم بالظلم- لتعارض هذا مع سلطانه وحريته.. لذلك فهو يرحم من يرحم ويتراءف على من يتراءف (رو٩: ١٥).

خامسا: الدعوة للخروج من دائرة المعاملة بالعدل، والنجاة من الأجرة المتفق عليها، والدخول إلى دائرة الرحمة .. وقبول الهبة المقدمة بالنعمة.. هي دعوة مقدمة للجميع (مت١١: ٢٨)

سادساً: رافض الدعوة بحجة عدم كونه مختاراً، لا دليل لديه على عدم اختياره.. حتى يكون هذا عذراً له لرفضه الدعوة.

سابعاً: مساءلة الإنسان لله عن أفكاره، أو أعماله، أو طرقه مع الآخرين، مرفوضة من الله .. شكلاً.. لأنه ««ماذا لك (بالآخرين) اتبعني أنت» (يو٢١: ٢٢).

ثامناً: (وهذا ما سنراه بوضوح في الباب التالي) هلاك الرافض يكون اختياره هو، لا اختيار الله

الاعتبار الثالث

إلـزام اللـــه

إلزام الله هو وسيلته لجعل المختارين أزلاً، المعينين سابقاً، حسب قصده، يَقبلون دعوته إياهم.. فينالون ما قصد أن يهبهم إياه من حياة أبدية.. و.. إلخ.

فإن كان الاختيار الأزلي هو الاستراتيجية الأساسية لدى الله -أي مشوراته الأزلية طبقاً لرأي مشيئته المطلق، وحرية إرادته الكاملة- فإن إلزام المختارين بقبول الدعوة، ونوال الهبة، هو التكتيك الإلهي؛ أي الأسلوب الذي يستخدمه الله مع المختارين ، لكي يقبلوا اختياره إياهم.

وإن كان الاختيار أزلياً.. إلا أن الدعوة هي إجراء يجريه الله في الزمان.. «لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ (أزلاً) فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ (أزلاً) فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ لِيَكُونَ هُوَ بِكْراً بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ. وَالَّذِينَ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ فَهَؤُلاَءِ **دَعَاهُمْ أَيْضاً**» ..متى دعاهم؟.. في الزمان (رو٨: ٢٩، ٣٠).

ولطبيعة الإنسان العاصية، والرافضة للدعوة، اقترنت هذه الدعوة **بإلزام المختارين**.

وهو ليس إلزام القهر بل إلزام الحب.

وحتى يبين الرب لنا حقيقة هذا الأسلوب؛ وهو **إلزام المدعوين**، صاغ لنا مثلاً في (لوقا١٤: ١٦ - ٢٤).

فقال: «إِنْسَانٌ صَنَعَ عَشَاءً عَظِيماً وَدَعَا كَثِيرِينَ وَأَرْسَلَ عَبْدَهُ فِي سَاعَةِ الْعَشَاءِ لِيَقُولَ لِلْمَدْعُوِّينَ: تَعَالَوْا لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُعِدَّ. فَابْتَدَأَ **الْجَمِيعُ** بِرَأْيٍ وَاحِدٍ يَسْتَعْفُونَ. (بسبب الحقول والبقر والارتباطات العائلية) فَأَتَى ذَلِكَ الْعَبْدُ وَأَخْبَرَ سَيِّدَهُ بِذَلِكَ. حِينَئِذٍ غَضِبَ رَبُّ الْبَيْتِ وَقَالَ لِعَبْدِهِ: اخْرُجْ عَاجِلاً إِلَى شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَأَزِقَّتِهَا **وَأَدْخِلْ** إِلَى هُنَا الْمَسَاكِينَ وَالْجُدْعَ وَالْعُرْجَ وَالْعُمْيَ. فَقَالَ الْعَبْدُ: يَا سَيِّدُ قَدْ صَارَ كَمَا أَمَرْتَ وَيُوجَدُ أَيْضاً مَكَانٌ. فَقَالَ السَّيِّدُ لِلْعَبْدِ: اخْرُجْ إِلَى الطُّرُقِ وَالسِّيَاجَاتِ **وَأَلْزِمْهُمْ** بِالدُّخُولِ حَتَّى يَمْتَلِئَ بَيْتِي لأَنِّي أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لَيْسَ وَاحِدٌ مِنْ أُولَئِكَ الرِّجَالِ الْمَدْعُوِّينَ يَذُوقُ عَشَائِي»

ودون إثبات المدلول الرمزي لشخصيات هذا المثل.. وكيف أن السيد صاحب العشاء يشير لله.. والعبد يشير للروح القدس.. والعشاء العظيم[١٤] يشير إلى المسيح الذبيح العظيم.. وغير ذلك من رموز[١٥].. نجد أمرين مهمين:

الأول: الدعوة مقدمة **للجميع** .. ومن أسف، فإن **الجميع** رفضوها.. إذ «ابْتَدَأَ الْجَمِيعُ بِرَأْيٍ وَاحِدٍ يَسْتَعْفُونَ» (ع١٨).. وهي دعوة مكررة طبقاً لـ (رو٢: ٤، أي ٣٣: ١٤).

الثاني: أمام رفض الدعوة من الجميع، لم يجد صاحب العشاء بُداً من استخدام أسلوب مختلف عن الدعوة الاختيارية.. **هو الإدخال جبراً.. والإلزام قسراً**.. لذلك لم يقل لعبده في المرة الثانية «ادع» .. أو قل «تعالوا».. بل «**أدخل**» (ع٢١) .. و «**ألزم**» (ع٢٣) .. وإلا ما كان امتلأ البيت (ع٢٣).. ولا كان

دخل أحد (ع١٨).

كنت أستمع متأملاً لجدتي لأمي.. وهي تحكي لي، كيف أتى رجال الخديوي إلى بلدتهم بالصعيد، واقتادوا عماً لها ضمن من اقتادوهم قسراً.. وساقوهم قهراً -مربوطين بالحبال- إلى «الفَرَما» لحفر الكنال (قناة السويس).. وكيف ذهب هذا العم ولم يعد.

كما أتأثر كلما قرأت نبوة الرب عن بطرس: «مَتَى شِخْتَ فَإِنَّكَ تَمُدُّ يَدَيْكَ وَآخَرُ يُمَنْطِقُكَ (يربطك) وَيَحْمِلُكَ حَيْثُ لاَ تَشَاءُ» (يو٢١: ١٨).. مشيراً إلى اقتياده -مربوطاً- إلى الاستشهاد.

لذلك تؤلمني فكرة الإلزام القسري.. وربط البشر بالحبال.. واقتيادهم كالأنعام .. إلى حيث لا يريدون.

فإن كان الله يلزم المدعوين إلزاماً.. فإلامَ يقود هذا الإلزام؟.. هل إلى حتفهم؟.. حاشا.. بل إلى المجد (عب٢: ١٠).

وإن كان الله يقتاد هؤلاء إلى المجد.. فكيف؟ .. هل بحبال؟

نعم؟

عجيب!! .. أية حبال هذه؟

يجيبنا النبي هوشع بلسان الله: «كُنْتُ أَجْذِبُهُمْ بِحِبَالِ الْبَشَرِ بِرُبُطِ الْمَحَبَّةِ» (هو١١: ٤).

ما حبال البشر؟.. إنها الحبال الوحيدة التي تنجح في التعامل مع النفس البشرية.. لأنها ربط المحبة.

ولما كان العبد في المثل المذكور يشير للروح القدس، لذلك فكما كان العبد يلزم المدعوين بالدخول هكذا الروح القدس الآن هو الذي يلزم

المختارين إلزاماً.. ولكن بربط المحبة.. لا بربط القهر والإذلال.. أي بتصوير محبة الله للنفس في السريرة (مز٥١ :٦).. ورسم الصليب أمامها بكيفية آسرة.. من ثم تحصرها هذه المحبة (٢كو٥: ١٤).. أي تحاصرها من كل جانب.. وتجذبها جذباً.. لا تستطيع معه فكاكاً .. فتلين قلوبهم العاصية.. تلك لم تكن يوماً لـ «تُلَيَّنْ بِالزَّيْتِ» (إش١: ٦).. لكنها تلين أمام هذه المحبة الغامرة الفائقة.. فتخضع لعمل الروح القدس منقادة وراءه.. مربوطة بحبال خفية.. لا تستطيعها أية حبال أخرى.. للخديوي.. أو غير الخديوي .. لذلك يُسمى هذا الحصار إلزاماً .. لكنه إلزام المحبة.

لذلك لا أعتذر عن استخدام هذه التعبيرات الجبرية والقسرية.. فتلك تعبيرات الكتاب.

وأما لماذا الإلزام؟.. فله مبرراته (التي سنراها في فصول تالية).. لكن قبل ذلك دعنا نرى نفس معنى الإلزام في كلمات الرب له المجد: «لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِلَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ» (يو٦: ٤٤)

ففي لوقا نرى **الإلزام** بالدخول.. وفي يوحنا نرى **الجذب** للدخول[١٦].

هذا **الجذب والإلزام** -وهو للمختارين فقط- هو الوسيلة الإلهية الوحيدة والفعالة في مواجهة عصيان الإنسان (إش٤٨: ٨)، ورفضه الدعوة.

وإن كان البعض يتساءل مستنكراً في (رو٩: ١٩): «لِمَاذَا يَلُومُ (الله) بَعْدُ؟» الذين لم يخترهم ولم يلزمهم .. فطالما مارس سلطانه هو في عدم اختيارهم، وبالتالي عدم إلزامهم، ما كان له حق أن يلوم بعد.. ظانين بذلك أنه ما دام لم يخترهم ولم يلزمهم، فتلك مشيئته هو، لا مشيئتهم

هم.. متسائلين «لأَنْ مَنْ (ذا الذي) يُقَاوِمُ مَشِيئَتَهُ؟» (رو٩: ١٩).. مدعين بذلك أنه سلب مشيئتهم.. ولم يبق لهم في الأمر دور.

والحقيقة أنه لا سلب مشيئتهم..ولا أبطل دورهم.. فدورهم ما **زال باقياً في ممارسة حريتهم هم في قبول الدعوة المكررة، في الوقت** المقبول[١٧] (٢كو٦: ٢).. أو رفضها.. منفذين في الحالتين مشيئتهم هم.

وإن كان هناك سلب لمشيئة أحد، فربما جاز لنا أن نقول أن الذي سلب مشيئتهم هم الذين ألزمهم ..وليس الذين لم يلزمهم.

لذلك فقد دخل فقط (في المثل المذكور) من ألزمهم صاحب العشاء (عن طريق عبده).. بينما لم يدخل الباقون.

فإن اعترض واحدٌ، بأن الله غير عادل، **إذ قدم له الدعوة فقط**.. ولم يلزمه **إلزاماً**، ويدخله **إجباراً** إلى العشاء، مثل الآخرين.. فقد شهد هذا الشخص على نفسه، بأن الدعوة قد قدمت إليه وهو رفضها.

ومن جهة هذا المعترض نقول:

أولاً: أن رفضه الدعوة يكفي لهلاكه أبدياً.. دون تعارض هذا مع عدالة الله .. بل هي العدالة عينها.

وثانياً: أنه إن كانت لهذا الشخص **الحرية الكاملة** في اختياره الله وقبول دعوته، أو رفضها، فهل يستكثر هذا الشخص أن يساوي الله بنفسه فتكون لله **نفس الحرية** في اختيار من يرحمهم، وبالتالي يلزمهم بقبول الدعوة؟.. أم أن ما يحق له أن يفعله، **لا** يحق لله أن يفعل مثله؟.. أم «حلال على بلابله الدوح (الغناء) حرام على الطير من كل جنس» كما يقول الشاعر؟.. نقول بكل احترام أن **حرية الله لا** تساويها أية حرية أخرى.

فهي حرية مطلقة.. ومع هذا فهي لا تتعارض مع حرية الإنسان المتروكة له، لقبول الدعوة، أو رفضها.. **وعليه أن يتحرك (بحرية) في حدود ما هو متاح من دعوة مقدمة له في الزمان.. لا في حدود ما هو مخفي عنه من اختيار في الأزل.**

ثالثاً: من قال أن الله **مجبر أن يلزم الجميع** .. فاقداً بذلك حريته، ما دام مجبراً (كما رأينا في الفصل السابق).

أما رابعاً: من قال أن الله إن لم يلزم الجميع كان غير عادل.. يكفي أنه **دعا الجميع** كما سبق ورأينا.. وكما نقرأ: «**تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ**....» **(مت١١: ٢٨)**.. و «**اِلْتَفِتُوا إِلَيَّ وَاخْلُصُوا يَا جَمِيعَ أَقَاصِي الأَرْضِ**» (إش٤٥: ٢٢).

لذا نكرر القول للمعترض: يكفي أنه دعاك.. وكرر الدعوة.. فإن قبلتها، **كان هذا هو دورك**.. وبالتالي ستكتشف أن اسمك مسجّل ضمن المختارين أزلاً.. كاكتشاف رائع، تؤكده لك كلمة الله.. **دون أن يكون لك دور في الاختيار الأزلي** السابق لهذه الدعوة.

أما إن رفضت الدعوة، **كان هذا هو دورك أيضاً**.. وبالتالي لن تذوق من **العشاء العظيم** (لو١٤: ٢٤).. أي لن تنال الحياة الأبدية.. **وكان هذا اختيارك أنت للهلاك** (بسبب رفضك)، **لا اختيار الله لهلاكك** (لأنه دعاك من ناحية.. ومن الأخرى لم يعيّنك أنت، أو غيرك، أزلاً للهلاك).

فإن لم يكن للمختارين دور في الاختيار الأزلي.. ولا حتى دور في الإلزام.. كان دورهم هو الخضوع بقوة الروح القدس لهذا الإلزام.. كذلك الرافضون أيضاً لهم دور؛ هو الرفض.. يساءلون عليه.. وعن هذا يكتب الرسول: «**وَلَكِنَّكَ مِنْ أَجْلِ قَسَاوَتِكَ**[١٨] (أي رفضك المتكرر للدعوة) **وَقَلْبِكَ**

غَيْرِ التَّائِبِ تَذْخَرُ لِنَفْسِكَ غَضَباً فِي يَوْمِ الْغَضَبِ....» (رو٢: ٥).. **من أجل قساوتك** .. لا من أجل عدم اختيارك.. أو عدم إلزامك.

وفي صعيد مصر، حيث يشتهر السكان بالكرم، يقال مجازاً: «فلان قطّع خلقات (أي ملابس) فلان».. أي دعاه لطعام عنده.. ولما تردد الضيف المدعو، **جذبه** المضيف **جذباً** من ملابسه حتى تتمزق.. في إشارة إلى **الإلزام الحبي** لقبول الدعوة.

ونرى صورة مصغرة لإلزام المحبة هذا فيما فعلته ليدية بياعة الأرجوان في سفر الأعمال (١٦: ١٤، ١٥) .. عندما قرنت دعوتها للرسول بولس ومن معه بالإلزام بقولها: «إِنْ كُنْتُمْ قَدْ حَكَمْتُمْ أَنِّي مُؤْمِنَةٌ بِالرَّبِّ فَادْخُلُوا بَيْتِي وَامْكُثُوا» .. يضيف كاتب الأعمال «**فَأَلْزَمَتْنَا**» .. أو بلغة أهل الصعيد «قطّعت خلقاتهم».

فهل يجوز لأحد أن يعترض على الله بأنه ظالم لأنه دعاه، تاركاً له حرية القبول أو الرفض.. ولم «يقطع خلقاته» إلزاماً؟

وعن الدعوة المحبية بالرفق والحب -دون الإلزام- والموجهة للجميع.. والمرفوضة، في قساوة صخرية، يكتب قداسة البابا «**شنودة الثالث**»:

كم دعاني الرب يوماً ... فأشحت الوجه عنه
وأراني قلبه الحاني ... أنا الهارب منه
قال كن صدراً لقلبي ... غير أني لم أكنه
كان قلبي في صدود ... مثل صخر كان أقسى

قــــال يــــا صـــاحـــب هل تحضر عرسي فاعتذرت
فــــأعـــاد الـــقــــول فـــي رفـــق وحـــب فـضـجـرت
فـــتـــولّـــى بـــعـــد أن قال انتظرني، ما انتظرت
لـــم تـــكـــن فـــي الـقـلـب أشواق لكي أحضر عرساً

* * * * *

أفلا يكون من حق الله بعد ذلك أن يلوم ويدين؟.. أم لا يزال هناك من يعترض قائلاً: «لِمَاذَا يَلُومُ (الله) بَعْدُ» (رو٩: ١٩).

خلاصة الاعتبار الثالث
وهو إلزام الله

أولاً: أن الإلزام هو الأسلوب الإلهي الوحيد لجعل المختارين يقبلون دعوته .. وذلك في مواجهة عصيان الإنسان.

ثانياً: أنه ليس هناك ظلم لدى الله إن لم **يلزم الجميع إلزاماً،** **ويجبرهم إجباراً** لقبول دعوته إياهم لحضور العشاء، وقبول الهبة؛ هبة الحياة الأبدية.. يكفي أنه دعا **الجميع** .. فإن رفض **الجميع** استحقوا الهلاك **جميعاً** .

ثالثاً: إن كان الله قد رأى في نعمته الغنية أن **يلزم البعض** في الزمان - وهم من اختارهم منذ الأزل ليعاملهم برحمته - كي يقبلوا الدعوة.. وينالوا الهبة.. ولم يلزم الآخرين.. بل تركهم لاختيارهم الحر دون إلزام.. فاختاروا رفض الدعوة.. ما كان لهم أن يعترضوا لعدم إلزامهم.. طالما رفضوا الدعوة المقدمة لهم.. بكامل حريتهم.. وبالتالي يكون **رفضهم هو اختيارهم هم، لا اختيار الداعي ؛ أي الله.**

رابعاً: إن أراد أحد أن يجعل الله مجبراً أن يلزم الجميع.. فقد سلب الله حريته الكاملة في اختيار من يلزمهم.. قبل أن يكون قد سلبه سلطانه المطلق وجلاله الفائق.. في الوقت الذي يتمتع فيه هذا الشخص بكامل الحرية في قبول الدعوة، أو رفضها.

الاعتبار الرابع

دكـــان الـلـــه

شبه الرب يسوع دعوة الله العامة للبشر، بالدعوة إلى عشاء (لو١٤: ١٦-٢٤) كما رأينا [١٩].. وأيضاً بالدعوة إلى عرس، تقدم فيه ذبائح ومسمنات (مت٢٢: ٢-١٤).. والكل مجاناً.

ولعلنا لا نبتعد كثيراً عن السياق إن شبهنا هذه الدعوة أيضاً بالدعوة إلى دكان لله، يقدم فيه بضاعته المجانية. مع عمل مقارنة بين دكاكين البشر، ودكان الله، تبين الفارق الهائل بينهما، من حيث علاقة صاحب الدكان بالزبون.

إن صاحب الدكان من البشر يفتتح دكانه ويجلس منتظراً من الناس من يأتي.. أو لا يأتي.

ولو لم يكن هناك اختيار إلهي أزلي لمن سيقبلون إلى دكان الله.. يعقبه إلزام في الزمان بإدخال هؤلاء المختارين إلى هذا الدكان، يصبح الله -إذ ذاك- كصاحب الدكان من البشر، يعرض بضاعته- وهي كما سنري في الفصل التالي بالتفصيل، ما تفوق العالم وما عليه .. والكون، والسابحات فيه.. ألا وهي المسيح الذبيح- ثم يجلس الله -والحال هكذا-

على باب دكانه.. كأي بائع من البشر.. منتظراً الزبائن أن يُقبلوا إلى محله.. أو لا يقبلون؟

إن أقبلوا إليه، صاروا هم أصحاب الكلمة الأولى.. من ثم يمنحهم الله بضاعته، كصاحب **الكلمة الأخيرة**.

أما إن استعفوا، ولم يُقبلوا.. كانوا هم أصحاب **الكلمة الأولى والأخيرة**.

وفي الحالتين (حالة إقبالهم، أو استعفائهم)، يصبح الله، وهو ينادي على بضاعته ويعلن عنها بشتى الوسائل، منتظراً تعطفهم عليه، هو الطرف الأضعف.. ذلك لأن «الزبون دائماً على حق» .. باعتباره الطرف الأقوى.. لأنه صاحب القرار، النابع من حريته في الاختيار.. لا حرية صاحب الدكان.

ويصبح الله، باللغة الدارجة، كالبائع «تحت رحمة الزبون».

فهل يليق بالله، وجلاله ومجده، هذا الضعف واستمطار رضى الزبون - بلغة تشبيهنا- أو المدعوين - بلغة الكتاب - وكيف يكون «تحت رحمتهم».. بينما هو:

أولاً: الخالق للكل بسلطانه .. وهم مخاليقه.

ثانياً: الكائن أزلاً.. وهم من خلقهم .. متى؟ .. «مِنْ أَمْسِ» (أي٨: ٩).. أي (أولاد إمبارح).

وهل يجوز أن يكون الله -أو يصبح- كواحد من أصحاب الدكاكين من البشر ليست له أية حرية في اختيار من يشاء من المدعوين.. بينما تكون للمدعوين -باعتبارهم الزبائن- كل الحرية في اختيار ما يشاءون من

دكاكين.. إن كان دكان الله.. أو غير الله؟

بالطبع لا.

ما الوضع إذا؟

شرحه الرب في قوله: «**كُلُّ مَا يُعْطِينِي** الآبُ فَإِلَيَّ يُقْبِلُ وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجاً» (يو٦: ٣٧).

لم يقل: «من يقبل إلى فأنا في انتظاره.. إن جاء جاء.. وإن لم يأت لم يأت».. أنا في كل الأحوال -لأني صاحب الدكان- في انتظار زبون يغمرني بعطفه السامي، ويُقبل إليّ.

ثم في سبيل الدعاية لدكانه.. والتدليل على بضاعته يضيف: «وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجاً» (يو٦: ٣٧).. على وزن الدعاية التجارية القائلة: «من يقبل إلى محلنا لن يخرج نادماً».

كلا لم يقل الرب هذا لا نصاً بالطبع.. ولا معنى.. بل ابتدأ كلامه بالعبارة «**كُلُّ مَا يُعْطِينِي الآبُ** فَإِلَيَّ يُقْبِلُ» .. أي من يقبل إليه، لا يفعل هذا من تلقاء ذاته.. متخذاً **الخطوة الأولى** .. ساحباً الله خلفه متخذاً **الخطوة الثانية**، فيقبله ولا يخرجه خارجاً.. بل **أولاً** كل من **يختاره الله أزلاً** (أف١: ٤).. **ويجتذبه الآب إلزاماً** (يو٦: ٤٤).. **ويعطيه للمسيح إعطاءً** (يو٦: ٣٧) -**كخطوة أولى**- يأتي هذا الشخص **مجتذباً إلى المسيح**.. **ومقبلاً إليه**.. -**كخطوة ثانية**- فلا يخرجه المسيح خارجاً.

الخطوة الأولى هنا ليست في يد الإنسان، يتخذها بالإقبال إلى المسيح.. تاركاً الله خلفه معتسفاً في **الخطوة التالية**.. منتظراً تعطف الإنسان عليه.. بل **الخطوة الأولى** (على الدوام، هنا وفي كل أفكار الله

وطرقه) هي في يد الله.. متعطفاً هو على الإنسان باختياره له.. وبجذبه.. ثم بإعطائه للمسيح .. ثم بعد -وليس قبل-ذلك، من يقبل إلى المسيح -**كخطوة ثانية**- لا يخرجه خارجاً.

وتكرر نفس المعنى في (يو١٧: ٢)، في قول الرب يسوع للآب: «إِذْ أَعْطَيْتَهُ سُلْطَاناً عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً **لِكُلِّ مَنْ أَعْطَيْتَهُ**».. بمعنى أن الآب أعطى المسيح سلطاناً على كل جسد، ليعطي المسيح حياة أبدية للشخص الذي أعطاه الآب للمسيح.. **فالآب متخذاً الخطوة الأولى**، هو الذي أعطى هذا الشخص للمسيح، **أولاً** .. لكي يعطيه المسيح، بسلطانه هذا، حياة أبدية **ثانياً**.

وفي هذا يضيف الرب يسوع مشيراً إلى المؤمنين به: « كَانُوا لَكَ (بالخلق) **وَأَعْطَيْتَهُمْ لِي** (كإنسان)» (يو١٧: ٦).. والنتيجة؟.. يجيبنا الرب: « **كُلَّ مَا أَعْطَانِي** (الآب) لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئاً بَلْ أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ» (يو٦: ٣٩).

فالآب يعطي الشخص للمسيح.. من ثم يُقبل هذا الشخص إلى المسيح.. فلا يخرجه المسيح خارجاً.. بل يعطيه حياة أبدية.. ويقيمه في اليوم الأخير .. هذا هو الترتيب الكتابي[٢٠].

خلاصة الاعتبار الرابع وهو دكــان اللّٰه

أنه لا يتفق مع جلال الله ومجده أن يكون كواحد من أصحاب الدكاكين في أسواق البشر.. فيتساوى تعامله مع المقبلين إلى دكانه مع تعامل أي صاحب دكان مع زبائنه.. فيعرض بضاعته .. ويدعو زبائنه.. وينتظر أن يأتوا .. أو لا يأتون.. فيكون بذلك.. «واقعاً تحت رحمتهم» -باللغة الدارجة- وبالتالي لا تكون له أية حرية.. بل كل الحرية متروكة للمدعوين.. لهم **الخطوة الأولى** إن هم أقبلوا .. **والأولى والأخيرة** إن هم استعفوا.

وما على الله، إذ ذاك، إلا أن يتخذ **الخطوة الثانية** إن هم أقبلوا.. أو **لا تكون له أية خطوات** إن هم استعفوا .. بل يبيت في سلبية مهينة.

لذلك لم تكن هناك مندوحة من الاختيار، والإلزام.

فإن كان الاختيار الأزلي هو مشروع الله الاستراتيجي، الذي يحفظ له جلاله ومجده.. فإن الإلزام في الزمان -كما رأينا- هو الإجراء التكتيكي، لتنفيذ هذا المشروع وتطبيقه عملياً.. وذلك ليس فقط حتى يمتلئ البيت (لو١٤: ٢٣).. بل أيضاً حتى ينتفي أن يتساوي الله مع أصحاب الدكاكين من البشر.. صوناً لكرامته وجلاله ومجده.

الاعتبار الخامس

بضاعة الله

إن كان لله دكان -كما رأينا- وبضاعة معروضة فيه -كما سنرى- فللشيطان في المقابل دكانه المنافس.. وبضاعته المغايرة.

وإن كان منطقياً أن تكون الأولية في كلامنا هي عن بضاعة الله، إلا أننا نبدأ ببضاعة الشيطان.. لأنها مضادة لبضاعة الله.. أخذاً بقول الشاعر: «**وبضدها** تتميز الأشياء».

ونرى التباين بين البضاعتين فيما يلي:

أولاً:

بضاعة الشيطان هي كل ما هو ضد الله.

بينما، بضاعة الله؛ هي كل ما هو من الله.

ثانياً:

بضاعة الشيطان مزيفة.

فهي توحي بعكس حقيقتها.. لأنه «تُوجَدُ طَرِيقٌ تَظْهَرُ لِلإِنْسَانِ مُسْتَقِيمَةً وَعَاقِبَتُهَا طُرُقُ الْمَوْتِ» (أم١٤: ١٢).

بينما **بضاعة الله أصلية**، لأنها «**الطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ**» (يو٦: ٢٧).. وهذا الطعام «**اللّه الآبُ قَدْ خَتَمَهُ**» (يو٦: ٢٧).

وإن كانت كبريات الشركات **تختم** بضاعتها بختم **صعب التقليد**.. منعاً للغش أو التزييف.. إلا أن الله قد ختم بضاعته -وهي المسيح يسوع كطعام الحياة الأبدية- ليس بختم **صعب** التقليد.. بل بختم **مستحيل التقليد**.. ذا لأنه ختم **سماوي** ؛ ألا وهو **الآيات الخارقة**.

ومن أيام موسى.. وما بعده من أنبياء، يدرك اليهود أن الختم الإلهي على أي أمر، أو قول؛ هو الآيات (خر٤: ١-٩).

لذلك سأل اليهود الرب: «**أَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟**» (يو٦: ٣٠).. كما لو كانوا يسألونه عن **ختم الآب** الذي أشار إليه[21].

بينما كان هذا **الختم** ظاهراً في كل الأعمال التي صنعها يسوع.. كقوله عن هذه الأعمال: «**لَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئاً مِنْ نَفْسِي**» (يو٨: ٢٨).. «**لَكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ.** .... **وَإِلاَّ فَصَدِّقُونِي لِسَبَبِ الأَعْمَالِ نَفْسِهَا**» (يو١٤: ١٠، ١١).. أية أعمال هذه؟.. إنها المعجزات التي لم يعملها أحد غيره (يو١٥: ٢٤).

هذا الختم **يشهد** بأن البضاعة التي يقدمها -وهي الطعام المشار إليه، أي الخبز الذي يعطيه، **وهو جسده الذي يبذله عن حياة العالم** (يو٦: ٥١)- هي بضاعة أصلية غير مزيفة.

فهي أيضاً **الشهادة** التي قدمها الرب للمتشككين من اليهود بقوله: «**أَمَّا أَنَا فَلِي شَهَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ (شهادة) يُوحَنَّا لأَنَّ الأَعْمَالَ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ لِأُكَمِّلَهَا هَذِهِ الأَعْمَالُ بِعَيْنِهَا الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا هِيَ تَشْهَدُ**

لِي أَنَّ الآبَ قَدْ أَرْسَلَنِي» (يو٥: ٣٦).. «اَلأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا بِاسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي» (يو١٠: ٢٥).

لذلك لم تكن هذه الأعمال فقط هي **الختم الإلهي** -غير القابل للتقليد- على بضاعته.. بل كانت في نفس الوقت أيضاً **شهادة الضمان** الدائمة والمستمرة لهذه البضاعة بأنها سماوية، وأصلية، وغير مزيفة.

ثالثاً:

التمتع ببضاعة الشيطان وقتي.

فأتباعه «يَحْسِبُونَ تَنَعُّمَ يَوْمٍ لَذَّةً» (٢بط٢: ١٣)؛ **هو يوم الحياة الحاضرة**.. وشمسه إلى مغيب.. «فَلْنَأْكُلْ وَنَشْرَبْ (اليوم) لأَنَّنَا غَداً نَمُوتُ!» (١كو١٥: ٣٢).. هكذا يقولون.

بينما الأكل من طعام الله، والشبع من بضاعته هو شبع دائم كقوله: «مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فَلاَ يَجُوعُ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فَلاَ يَعْطَشُ أَبَداً» (يو٦: ٣٥) «مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ» (يو٤: ١٤).

رابعاً:

تاريخ صلاحية بضاعة الشيطان ينتهي بانتهاء العمر.

أما بضاعة الله، فلأنها أبدية، فتاريخ صلاحيتها لا نهاية له.. إذ هي صلاحية إلى الأبد!!.. فهي خلاص أبدي (عب٥: ٩).. وحياة أبدية (يو٣: ١٦).. وبيت أبدي (جا١٢: ٥، ٢كو٥: ١).. وعزاء أبدي (٢تس٢: ١٦).. وفرح أبدي (إش٥٣: ١٠).. ومجد أبدي (٢كو٤: ١٧).. إلى آخر ما هو أبدي.

خامساً:

بضاعة الشيطان مكلفة.. يدفع فيها الشخص من:

ماله

من صحته

من عمره

من كرامته

فمن ماله؛ يزن فضته «لِغَيْرِ خُبْزٍ» وَتعبه «لِغَيْرِ شَبَعٍ» (إش٥٥: ٢).

ومن صحته؛ فإن بضاعة الشيطان «طَرَحَتْ كَثِيرِينَ جَرْحَى وَكُلُّ قَتْلاَهَا أَقْوِيَاءُ» (أم٧: ٢٦).

ومن عمره؛ لأن «الشَّرُّ يُمِيتُ الشِّرِّيرَ» (مز٣٤: ٢١).. إنه «يَمُوتُ مِنْ عَدَمِ الأَدَبِ» (أم٥: ٢٣).

ومن كرامته؛ إذ يتنازل عنها للحصول على البضاعة.. ذلك لأن بئر سوخار -ممثلة لبئر العالم- عميقة (يو٤: ١١).. ومن يُرد أن يشرب منها، عليه أن ينحني ليصل إلى مياهها.

وهذا ما طلبه الشيطان من الرب له المجد (على الجبل وقت التجربة)، أن **ينحني ويسجد** له بقوله: «أُعْطِيكَ هَذِهِ جَمِيعَهَا (ممالك العالم ومجدها) إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي (مت٤: ٩).. ويا له من ثمن غال يُدفع من الكرامة، يفوق قيمة البضاعة بما لا يقاس.

أما بضاعة الله فهي:

مجانية

تحفظ الصحة

تطيل العمر

تصون الكرامة

وكونها **مجانية**.. فلأنها بلا ثمن.. كقول الرب: «**أَيُّهَا الْعِطَاشُ جَمِيعاً هَلُمُّوا إِلَى الْمِيَاهِ وَالَّذِي لَيْسَ لَهُ فِضَّةٌ تَعَالُوا اشْتَرُوا وَكُلُوا. هَلُمُّوا اشْتَرُوا بِلاَ فِضَّةٍ وَبِلاَ ثَمَنٍ** (إش٥٥: ١، ٢).. أ «**أَنَا أُعْطِي الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّاناً**» (رؤ٢١: ٦).. «**وَمَنْ يَعْطَشْ فَلْيَأْتِ. وَمَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّاناً**» (رؤ٢٢: ١٧).

كما أنها **تحفظ الصحة** .. كقول الحكيم: «**اتَّقِ الرَّبَّ وَابْعُدْ عَنِ الشَّرِّ فَيَكُونَ شِفَاءً لِسُرَّتِكَ وَسَقَاءً لِعِظَامِكَ**» (أم٣: ٧، ٨).. أي حفظ من الأمراض الباطنة (شفاء السرة).. وحفظ من أمراض العظام وهشاشته (سقاء العظام).. كما ومن باقي الأمراض.. إذ «إن كنت تسمع لصوت الرب إلهك .... **فَمَرَضاً مَا مِمَّا وَضَعْتُهُ عَلَى الْمِصْرِيِّينَ لاَ أَضَعُ عَلَيْكَ فَإِنِّي أَنَا الرَّبُّ شَافِيكَ**» (خر١٥: ٢٦).

أما **إطالة العمر** .. فنراها في قول الرب لحافظ أول وصية بوعد .. «**لِتَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ**» (أف٦: ٢).. وليس بالضرورة أن تطول الأيام عدداً.. إذ أن أيام العمر وأشهره محددة (أي١٤: ٥).. بل **تطول استفادة واستثماراً.. شبعاً** ورضى .. تطول عرضاً لا طولاً.

حتى الكرامة محفوظة لمن يقبل إلى لمسيح.. فالماء الذي يعطيه هو «**ماء الراحة**» (مز٢٣: ٢).. وهو في «علم الري»، الماء ذو المنسوب الأعلى من الأرض حتى يمكن غمرها به دون مجهود.. ولأنه مرتفع المنسوب -على العكس من مياه بئر سوخار- فإن استخدامه، أو الشرب منه لا يحتاج إلى انحناء أو طأطأة رأس، أو ركوع.

لذلك فحتى تظل رأس الممنوح له هذا الماء مرفوعة (مز٣٣: ٣)، ولا يعايره الرب (يع١: ٥) **بأنها مياه مجانية**.. يقول: «**اشْتَرُوا**» (إش٥٥: ١).. «**أُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي**» (رؤ٣: ١٨).. أي **بيع وشراء** في الظاهر، صوناً للكرامة.. وإن كان **مجانياً**، «**بِلاَ فِضَّةٍ وَبِلاَ ثَمَنٍ**» (إش٥٥: ١) في حقيقة الأمر.. حقاً «**أَنْتَ .... رَافِعُ رَأْسِي**» (مز٣: ٣).

سادساً :

بضاعة الشيطان **منظورة** .. تراها عين الإنسان (جا١١: ٩).

بينما بضاعة الله **غير منظورة**.. لا تراها إلا عين الإيمان (عب١١: ٣).

وفي النهاية :

بضاعة الشيطان **هي الظلمة** (رو١٣: ١٢).. وبضاعة الله **هي النور** (يو١: ٩).

ومع هذا فإن **بضاعة الشيطان مرغوبة**.. لأن الظلمة أكثر إغراء للإنسان من النور.. لطبيعته الساقطة.. إذ «**أَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً**» (يو٣: ١٩).

وهكذا نجد أن بضاعة الله رغم كونها أصلية.. وغير مزيفة.. ومختومة..ومضمونة.. وأبدية.. ومجانية.. وتحفظ الصحة.. وتطيل العمر.. وتحفظ الكرامة.. **فإنها مرفوضة** .. كقوله: **وَلَكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي** « (يو١٠: ٢٥، ٢٦).

بل حتى الذين رأوا آياته، والختم الأصلي على هذه البضاعة، لم يرفضوها **فقط**، بل أيضاً **أبغضوها**، **وأبغضوه مع أبيه** .. حتى أنه قال عنهم: «**لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ عَمِلْتُ بَيْنَهُمْ أَعْمَالاً لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ غَيْرِي لَمْ**

تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ رَأَوْا **وَأَبْغَضُونِي أَنَا وَأَبِي**» (يو١٥: ٢٤).

لقد رأوا بعيونهم دون قلوبهم.. وسمعوا بآذانهم، دون ضمائرهم (مت١٣: ١٣-١٥).. ذلك لأن طبيعة الإنسان في سقوطه طبيعة قصيرة النظر لا تدرك -في عدم إيمان- ما هو لروح الله (١كو٢: ١٤).. فهو بالنسبة لها جهالة (١كو٢: ١٤).. كما أنها إن أدركته لا تقبله(يو٣: ٣٢).

عجيب هو الإنسان الذي **يرفض** خيراً أبدياً **مجانياً، ويُقدم** بكل همة، **ليشتري الأذى الزمني، والموت الأبدي بأعلى الأثمان**.

وهذا حال الجميع بدون استثناء

«فَابْتَدَأَ **الْجَمِيعُ** بِرَأْيٍ وَاحِدٍ يَسْتَعْفُونَ».. رافضين الدعوة لنوال بضاعة الله.

وهكذا يتكلف صاحب العشاء أو العرس ما يتكلف.. ويذبح ما يذبح (في الرمز) من ثيران ومسمنات .. ثم -بسبب رفض **جميع المدعوين**- يضيع كل هذا هباء منثوراً.

فهل تبور بضاعة الله (المرموز إليها بتلك الذبائح)؟

كلا بالطبع.. وإلا ما كان الله هو الله.. من هنا كان الرأي الخاص لصاحب العشاء .. مستقلاً فيه عن رأي المدعوين -أي **رأي مشيئته هو**- أن **يختار** البعض.. طبقاً لحريته المطلقة .. ويوجه عبده إلى هذا البعض.. **فيلزمهم** بالدخول إلى عشائه.. وذلك حتى يمتلئ الدكان.. **فلا تحرق البضاعة** -بلغة تشبيهنا- أو «حتى يمتلئ البيت» (لو١٤: ٢٣).. فلا **يُحرق العشاء** - بلغة الكتاب.

فإن كان العشاء العظيم؛ هو المسيح الذبيح -وما أعظمه عشاء- والدعوة؛ هي للأكل منه، لنوال الحياة الأبدية.. ثم لم يختر الله المعينين

للأكل منه أزلاً.. ثم لم يلزمهم في الزمان بقبول الدعوة والدخول.. لبارت البضاعة.. «والحرق» عمل الصليب -أقول هذا جدلاً- ولضاعت سدى معاناة المسيح فوقه (مز٢٢: ١٢-١٨).. وصار عبثاً احتماله «إثم جميعنا» (إش٥٣: ٦).. ولأصبح باطلاً شربه كأس الدينونة (يو١٨: ١١).. ولأمسى الله بذلك أرعناً -وحاشا أن يكون هذا أو يحدث- ولبات مثل الذي يبني برجاً دون أن يتحوط للمستقبل، «وَيَحْسِبُ النَّفَقَةَ هَلْ عِنْدَهُ مَا يَلْزَمُ لِكَمَالِهِ؟ لِئَلاَّ يَضَعَ الأَسَاسَ وَلاَ يَقْدِرَ أَنْ يُكَمِّلَ فَيَبْتَدِئَ جَمِيعُ النَّاظِرِينَ يَهْزَأُونَ بِهِ قَائِلِينَ: هَذَا الإِنْسَانُ ابْتَدَأَ يَبْنِي وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُكَمِّلَ» (لو١٤: ٢٨- ٣٠).

فيضع الله -مثل هذا الإنسان الغشيم- الأساس في عمل الصليب (يو٣: ١٦).. ثم يقف بعد ذلك واجس القلب.. حائر الفكر.. مكتوف اليدين.. منادياً على بضاعته.. متوسلاً إلى خلائقه.. راجياً من البشر «فضل الكريم ونعمة المتعطف» كما يقول «القروي» (أحد الشعراء).

وهيهات -كما رأينا- أن يتعطف أحد عليه.. أو يقبل شخص إليه.. فوجهة **الجميع** دائماً دكان الشيطان .. ونصب أعينهم على الدوام بضاعته.

إذ ذاك لا يقدر الله أن يكمل مشروعه، بعدما وضع الأساس.. ويمسي موضع سخرية وهزء جميع الناظرين من كافة الخلائق.

خلاصة الاعتبار الخامس
وهو بضاعة اللّٰه

أنه لم تكن هناك مندوحة -حتى يكون عمل الله كاملاً.. ولا تبور بضاعته.. ولا يُحرق عمل الصليب -أن تكون النفقة محسوبة.. والقضية محسومة.. والخطة مرسومة أزلاً .. عن طريق اختيار البعض الأزلي.. ثم منفذة في الزمان.. عن طريق إلزام هؤلاء المختارين- الذين هم مدعوون حسب قصده -بالدخول إلى العشاء.. حتى يمتلئ البيت (لو١٤: ٢٣).

عندئذ يثبت قصد الله (رو٩: ١١).. ويتجذّر الأساس (١كو٣: ١١).. ويقوم البنيان (أف٢: ٢٠).. برجاً شامخاً .. واصلاً إلى ذروة المقاصد الإلهية الصالحة، في المسيح يسوع، له كل المجد.

الاعتبار السادس

كرامة الله

قال العبد لسيده ساعة المحاسبة: «.... أَنْتَ إِنْسَانٌ صَارِمٌ تَأْخُذُ مَا لَمْ تَضَعْ وَتَحْصُدُ مَا لَمْ تَزْرَعْ» (لو١٩: ٢١).

وعلى قياس مماثل.. هل يوجد ما يمنع أن يجدِّف بعض العصاة على الله بعد ذهابهم إلى الهاوية، أو إلى الجحيم الأبدي (قارن رؤ١٦: ٩، ٢١).. قائلين له: أنت شخص صارم.. **نحن لم نخترك ولا كنا نريدك، ولا نعيمك الذي وعدتنا به؟** .. هل يوجد ما يمنع ذلك؟

ماذا يكون رد السيد وقتها؟

لو لم يكن هناك اختيار إلهي أزلي.. لاستدَّ فم الله أمام قولهم.. وأُهدرت كرامته أمام الجميع.. من في النعيم.. ومن في الجحيم.. ومَن هو من «كُلُّ خَلِيقَةٍ مِمَّا فِي السَّمَاءِ وَعَلَى الأَرْضِ وَتَحْتَ الأَرْضِ» (رؤ٥: ١٣).

وحاشا أن يحدث هذا

ما الوضع إذاً؟

* * * * *

ينادي «شعلان» قبل خروجه من المنزل على ابنه:

ش- اسمع يا «عسران».. إن استذكرت دروسك اليوم وعملت الواجب المدرسي، لك مني مكافأة قيِّمة عند عودتي؛ قطعة من الشيكولاتة.

يغيب شعلان سويعات قليلة، ويعود حاملاً في جيبه قطعة كبيرة من الشيكولاتة، مع بعض حبات نُقْلٍ (مكسرات).

ش- أي «عسران».

ع- نعم أبي.

ش- هل ذاكرت؟

ع- كلا.

ش- وواجب المدرسة المنزلي؟

ع- شدني فيلم جذاب في التليفزيون.. فلم أنتبه للوقت.

ش- الأفلام وهي خيال.. أم مستقبلك وهو واقع؟

ع- ....

ش- ألم أعدك بقطعة من الشيكولاتة، إن أديت واجبك؟

ع- بلى.

يخرج شعلان قطعة الشيكولاتة من جيبه.. ويلوح بها قائلاً:

ش- لن أعطيها لك.

ع- لا تلزمني .. «**خليها لك**».

ش- يشتعل «شعلان» غضباً.. ويمتقع إحراجاً.. فقد سخر ابنه منه.. واستهزأ به.. وبالمكافأة.

فالعقوبة بعد أن نفذت على الولد.. والمكافأة وقد حجبت عنه، لا يضيره إن رفسها، بعد أن ضاعت منه.

يحدث هذا قبل اختراع الهاتف النقال (التليفون المحمول).

أما وقد اختُرع هذا الجهاز، فإن أم «عسران» تتصل عن طريقه بزوجها.. شاكية له من إهمال ولدها .. وعدم قيامه بعمل الواجب المدرسي.

فيعود الأب ويسأل «عسران»:

ش- هل ذاكرت؟

ع- كلا.

ش- والواجب المدرسي؟

ع- لم أكمله.

ش- ألم أقل لك إن ذاكرت سوف أكافئك بقطعة من الشيكولاتة؟

ع- لا تلزمني .. «**خليها لك**».

ش- وهل تظنني أحضرتها لك؟.. أنا.. لم أحضرها لك من الأساس.

ع- إنها أمي.. هي التي أخبرتك إذاً؟

ش- أمك.. أم غير أمك.. النتيجة واحدة.. أنا لم أحضرها لك.

هنا يُرفع الحرج عن شعلان.

وهذا تصوير لما سيحدث مستقبلاً .. مع الفارق الذي سوف نشير إليه.

فبعد تطبيق القانون الإلهي العادل.. وتنفيذ العقوبة المتفق عليها (راجع الاعتبار الثاني)؛ وهي «أجرة الخطية هي موت».. شاملة الموت الثاني؛ أي طرح رافضي الدعوة في بحيرة النار والكبريت (رؤ١٩: ٢٠ و٢٠: ١٥).. أو حتى قبل وصولهم إليها، لوجودهم فقط في الهاوية؛ (موضع العذاب) (لو١٦: ٢٣، ٢٨).. ربما جدف المساكين على الله - أو على الأقل بعضهم- من شدة العذاب (رؤ١٤: ١١) هناك.. على قياس ما فعله «عسران».. أو العبد

الشرير (لو١٩: ٢١).. أو المذكورون في (رؤ١٦: ٩، ١١، ٢١).

لقد تكلموا على الله «بكلمات صعبة» في حياتهم (يه١٥).. فبالأولى كثيراً، خلال عذابهم الأبدي.

لأنه ما دام الحكم أبدياً.. فيأساً منهم - وعلى مبدأ «أنا الغريق فما ضري من البلل»- ربما أهان بعضهم الله، مجدفين عليه بأقوال من عينة: «أنت.... **قَاسٍ تَحْصُدُ حَيْثُ لَمْ تَزْرَعْ وَتَجْمَعُ مِنْ حَيْثُ لَمْ تَبْذُرْ** (بمعنى أنك ظالم)» (مت٢٥: ٢٤).. **لا نحبك ولا نريدك.. ولا كنا نحبك أو نريدك في يوم من الأيام.. لم نخترك.. ولا كانت لنا رغبة أصلاً في دخول نعيمك أو جنتك.. لقد عرضتها علينا ورفضناها بإرادتنا.. تاركينها لك.. فلتهنأ بها** .. أو بلغة عسران: «**خليها لك**».

فهل يكون موقف الله مثل موقف شعلان قبل اختراع التليفون المحمول؟

أم يكون مثل موقفه بعد هذا الاختراع؟

لا هذا ولا ذاك.

إن لله موقفاً **ثالثاً** يختلف عن الأولين.. وهذا هو الفارق.

كيف؟

أولاً: لا يمكن أن يكون الله مثل شعلان قبل اختراع التليفون المحمول.. فقد كان الأخير يجهل ما سيحدث في غيابه.

ثانياً: لا يمكن أن ينتظر الله اختراعاً ينبئه بالمستقبل.. إذ هو يحيط علماً بكل شئ.. منذ الأزل.. وإلى الأبد.

ثالثاً: لا يمكن أن يكون علم الله فقط بالمستقبل وبمن لن يتوبوا مستقبلاً ولن يقبلوا دعوته، هو الذي جعله لم يخترهم.. إن هذا يعود بنا إلى نقطة الصفر، في كلامنا السابق.

ما الموقف إذاً؟

سبق أن وضحناه، وهو أن اختيار الله غير مبني على معرفته وعلمه فقط بالمستقبل - مع أنه يعلمه - بل على سلطانه المطلق، وحريته الكاملة.. فيما لا يتعارض مع عدالته المنزهة (راجع الاعتبارين الأول والثاني).

لذلك نذكر بعض العبارات الخاطئة.. ونكرر تصويبها الذي سبق شرحه.

العبارة الخاطئة الأولى: الله لم يختر البعض (أزلاً)، لأنه عرف أنهم لن يتوبوا (في الزمان).

التصويب: أنهم لم يتوبوا (في الزمان)، لأن الله لم يخترهم (أزلاً).

العبارة الخاطئة الثانية: عيَّن الله للحياة الأبدية (أزلاً) الذين سوف يؤمنون (لاحقاً في الزمان).

التصويب: «آمَنَ (لاحقاً، في الزمان) جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا (سابقا، في الأزل) مُعَيَّنِينَ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ (أع١٣: ٤٨) .

العبارة الخاطئة الثالثة: لستم من خرافي (المعينين سابقاً)، لأني عرفت أنكم لن تؤمنوا (لاحقاً).

التصويب: لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ (حالياً) لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي (المعينين سابقاً)» (يو١٠: ٢٦).

لذلك فعندما يجدف الأشرار مستقبلاً على الله في عذابهم الأبدي؛ بأنهم لا أرادوه، ولا اختاروه .. بل داسوه (عب١٠: ٢٩).. وداسوا دعوته ..يرد الله عليهم - مثل شعلان- وقد رُفع الحرج عنه:

✚ أنا الذي لم أختركم من الأساس.. وقد سبق أن «قُلْتُ لَكُم (ولأمثالكم) «لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي» (يو١٠: ٢٦).. الذين اخترتهم وعينتهم.

وخلاصة الاعتبار السادس وهو كرامة الله

أنه لا مندوحة من الاختيار الأزلي (السابق توضيحه) .. إذ لولاه **لأهدرت كرامة الله** مستقبلاً.. **ولأُحرج** إحراجاً أبدياً - بطول الأبدية وعرضها - أمام جميع خلائقه.

الاعتبار السابع

نعمة الله

ما هو تعريف النعمة.. كما هي في الكتاب؟

ليست النعمة هي فقط - كما يظن البعض - الإحسان لمن لا يستحق.. هي كذلك كمبدأ .. لكنها أوسع من ذلك كتعريف.

ونبدأ بالتعريف.. ما هو؟

أجابنا الرسول الملهم: «**فَإِنَّكُمْ تَعْرِفُونَ نِعْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِكُمُ افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ**» (٢كو٨: ٩).

من أجلكم افتقر» .. حتى يصل إليكم.

«لكي تستغنوا أنتم».. أي لكي تصلوا إليه.

«بفقره» (أو بافتقاره) .. أي أنه دفع كلفة وصوله إلينا.. ووصولنا إليه.. بافتقاره.. حتى إلى الحياة.. أي الموت.. موت الصليب.

فالله محبة .. هذه طبيعة الله (١يو٤: ٨).

وفي محبته يريد أن يصل إلينا.. لكن «**آثَامُكُمْ صَارَتْ فَاصِلَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِلَهِكُمْ**» (إش٥٩: ٢)..وصارت هناك هوة أدبية عظيمة بين الإنسان وبين

الله.. ولا يمكن أن يعبر الله هذا البون الشاسع وصولاً للإنسان، إلا إذا كانت طبيعته - وهي المحبة - **عاملة**.

وقبل أن نرى أنها كانت عاملة أزلاً.. نرى كيف أصبحت عاملة في الزمان.

كان ذلك بوصولها إلينا.

كيف تصل إلينا.. رغم حالتنا؟

في المسيح يسوع.

فالنعمة هي الله الأزلي ذاته **واصلاً إلينا** في الزمان، في مطلق محبته العاملة، في المسيح يسوع.. هذا هو **نصف تعريف النعمة**.

أما النصف الآخر؛ فهو لكي يرفعنا إليه.

ولما كان ذلك يتطلب كلفة عظيمة.. فقد تكفل بها الرب يسوع.. بافتقاره.. وموته النيابي عنا.. علاجاً لحالتنا «**لكي نستغني نحن بفقره**».

> **فالنعمة تعريفاً هي: الله واصلاً إلينا.. في مطلق محبته.. لكي يرفعنا إليه.. قائماً بكل الكلفة.. في الصليب.**

وصل إلينا يسوع المسيح، في الزمان.. ووصلت لنا فيه محبة الله العاملة؛ أي نعمته.. إذ جاء إلينا «مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً» (يو١: ١٤) .. لكن متى

صارت محبة الله عاملة؟.. هل كانت **عاطلة** أزلاً، ثم انقلبت **عاملة** - في الزمان- بمجئ المسيح إلينا.. مملوءاً منها؟

حاشا.

ما الأمر إذاً؟

قبل أن تكون محبة الله عاملة في الزمان، كانت عاملة في الأزل، كيف؟.. وهي حتى تكون عاملة يستلزم ذلك وجود من تكون عاملة فيهم ومعهم..أي ترتبط بوجودنا.. فهل كنا موجودين أزلاً؟ [22]

نعم.

عجيب!!.. كيف؟

كنا موجودين **في المسيح** (راجع الاعتبار الأول).. ألم يقل الكتاب أنه اختارنا فيه.. أي أن الله رآنا في المسيح.. وعرفنا فيه.. من ثم اختارنا فيه(أف١: ٤).. وعيننا فيه.. وبه (أف١: ٥) .. وغير ذلك كثير.. ذلك لأن كل بركة روحية بوركنا بها هي فيه؛ «**في المسيح**» [23] (أف١: ٣).

فكل نشاط محبة الله (أو بالحري نعمته) كان موجوداً -أزلاً- وممارساً بوجود المسيح؛ موضوع نشاط هذه **المحبة العاملة**.. أو بالحري موضوع استقبال **هذه النعمة**.

ولما كانت هذه المحبة العاملة (أي النعمة) عاملة أزلاً.. في المسيح؛ الابن الأزلي (يو١: ١، ١٨).. لذلك **فإن هذه النعمة أزلية** .. وقد أعطيت لنا في الأزل.. حين كانت محبة الله عاملة - دون وجودنا - إذ أعطيت لنا هذه النعمة «**فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَبْلَ الأَزْمِنَةِ الأَزَلِيَّةِ**» (٢تي١: ٩).. أو بلغة أدق: أُعطيت لنا أزلاً قبل الأزمنة.. في المسيح يسوع.

ولما جاء المسيح، جاء مملوءاً بهذه النعمة الأزلية: «**مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً**» (يو١: ١٤).. ونؤجل الكلام عن الحق حتى نهايةهذا الباب.

أما كونه **مملوءاً نعمة**، فهذا يعطي انطباعاً أولياً بأن المسيح بمثابة مستودع، أو فنطاس هائل للنعمة.. وهذا صحيح جزئياً.. لكنه غير دقيق كلياً.

صحيح في كونه مملوءاً.. فيما يشير إلى **غنى النعمة**.. لكنه غير دقيق فيما يشير إلى **مجد النعمة**.

ما غنى النعمة (أف١: ٧)؟

هو اتساع مظلتها لتكفي تغطية جميع (تي٢: ١١)، وأشر الخطاة.. «لأنه حَيْثُ كَثُرَتِ الْخَطِيَّةُ ازْدَادَتِ النِّعْمَةُ جِدّاً» (رو٥: ٢٠).. ثم انسحاب رقعتها، بعد ذلك، فوق من خلصتهم، لتغطي جميع احتياجاتهم الروحية والزمنية.. للوصول بهم إلى حضرة الله نفسه حاضراً .. ثم أبدياً بنهاية رحلتهم.. والإتيان بها إليهم عند استعلان يسوع المسيح (١بط١: ١٣).. مروراً **بإقامتهم المستديمة** في هذه النعمة (رو٥: ٢).. **الكافية** لكل شئ (٢كو١٢: ٩).

قال أليشع للأرملة: «اذْهَبِي بِيعِي الزَّيْتَ **وَأَوْفِي** دَيْنَكِ **وَعِيشِي** أَنْتِ وَبَنُوكِ بِمَا بَقِيَ» (٢مل٤: ٧).. فالنعمة -متمثلة في اليشع رجل النعمة- أبعدت شبح الموت عن العائلة **فخلصتهم** من المرابي .. ثم تكفلت بعد ذلك بكل معيشتها؛ «**عيشي**» .. حقاً، «نِعْمَةً فَوْقَ نِعْمَةٍ» (يو١: ١٦).. هذا هو غنى النعمة.

أما القول بأن المسيح هو فنطاس **فقط** للنعمة، فهو قول غير

دقيق.

لماذا؟

لأن محتوى الفنطاس يتناقص بالسحب منه.

أما المسيح المملوء نعمة، فمهما يؤخذ منه على مر الأجيال، لخلاص الخطاة، و تسديد احتياجات جميع المؤمنين، بكفاية تامة، فإن ملأه يظل ملئاً للجميع.. فأول المؤمنين أخذ من الملء.. وطوال الأجيال والقرون يَرِدُ المؤمنون النبع ويسحبون من هذا الملء .. ومع هذا استمر - ولا يزال- هذا الملء ملئاً.. حتى أن آخر المؤمنين سوف يأخذ من نفس الملء الذي أخذ منه أولهم.. دون أن يتناقص الملء، ذرة واحدة.. لأنه «مِنْ مِلْئِهِ نَحْنُ **جَمِيعاً** **(وليس الأولون فقط.. بل جميعاً)** أَخَذْنَا وَنِعْمَةً (متفاضلة) فَوْقَ نِعْمَةٍ» (يو١: ١٦))

عجيب!!.. أيوجد فنطاس، أو مستودع، يُسحب منه ولا يتناقص محتواه؟

كلا.

لكنه ليس بعجيب بالنسبة للرب يسوع المسيح.. لأنه **ليس فقط مستودعاً للنعمة**.. أو فنطاساً يحتويها.. بل هو **مصدرٌ لها**.. وهذا هو «**مجد النعمة**» (أف١: ٦).

ما مجد النعمة إذاً؟

يجيبنا الرسول بالوحي؛ أنه كونها «**في المحبوب**» .. إذ كتب: «**مَجْدِ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْنَا فِي الْمَحْبُوبِ**» (أف١: ٦).. أي في الابن الأزلي (يو١: ١).. الابن الحبيب (مت٣: ١٧).. ابن محبة الآب (كو١: ١٣).

وما دامت فيه؛ «في المحبوب»، فهو ليس فقط بناقل لها.. بل هو أيضاً مصدر لا ينضب لها.. ونبع لا يغيض ملؤه.. أو ليس هو الله (يو١: ١)؟

أخذنا بعض الوقت في تعريف النعمة.. ولستِ أظنه بوقت ضائع.. فكلما تأملنا فيها، دفعنا ذلك إلى تقديم الشكر «لِلّٰهِ عَلَى عَطِيَّتِهِ الَّتِي لاَ يُعَبَّرُ عَنْهَا» ؛ ألا وهي النعمة الفائقة.. أي المسيح يسوع واصلاً إلينا (٢كو٩: ١٤، ١٥).

نأتي الآن إلى موضوعنا.. وهو ما علاقة النعمة بالاختيار الأزلي؟

نقول أن هذا الذي أتى إلينا «مملوءاً نعمة»، أتى موجهاً شحنته من النعمة إلى أهداف محددة.

وعودة إلى تشبيه الفنطاس، نجد أن سائقه - قبل القيام برحلته- يقرر محطات الوصول لتوزيع محتواه.

فهل يكون الرب يسوع في مجيئه مملوءاً بهذه النعمة، أقل حنكة من سائق الفنطاس؟

أو يكون الآب الذي أرسله أقل حكمة من صاحب الفنطاس؟

أم يسافر المسيح.. آتياً بهذه النعمة الغنية.. دون تحديد مسبق لمحطات الوصول .. ألا وهي الأشخاص المعينين أزلاً لقبول هذه النعمة؟

إن القول بعدم وجود اختيار أو تعيين أزلي، يجعل من المسيح سائق فنطاس غشيم.. يمضي في طريقه بلا هدف.. ليدلق ما فيه من خير ونعمة.. حتى يأخذ منه عشوائياً كل من يريد.. أو كل من تنال يده.. **دون أن يكون لهذا السائق .. أو لمن أرسله أية إرادة في التوزيع.**

أو يجعل منه بائعاً متجولاً .. يطوف منادياً على بضاعته .. يهيم عشوائياً في الطرقات .. «على باب الله».. بلا خط محدد للسير.. ضارباً أخماساً في أسداس.. متحيراً، أي الدروب يختار، لترويج بضاعته.. **دون إرادة له في اختيار زبائنه.**

فهل **انعدام الإرادة** من صفات الله؟.. أم أن **العشوائية** هي أسلوبه؟.. ألم يطلب الرب من التلاميذ أن يتكئوا الجموع .. «فَاتَّكَأُوا صُفُوفاً صُفُوفاً: مِئَةً مِئَةً وَخَمْسِينَ خَمْسِينَ»(مر٦: ٤٠) .. ليكون « كُلُّ شَيْءٍ (حتى الجلوس للأكل) بِلِيَاقَةٍ وَبِحَسَبِ تَرْتِيبٍ» (١كو١٤: ٤٠) .. وليس عشوائياً؟

فبالأولى كثيراً تكون النعمة - قبل وصولها- محددة أزلاً لأسماء مختارة من الله ومعينة - طبقاً لسلطانه المطلق كما رأينا- فإن وصلت إليهم في الزمان فذلك لأنها سبق أن أعطيت لهم -تحديداً بذواتهم- في المسيح يسوع قبل الأزمنة الأزلية (٢تي١: ٩).

هذا من جهة تعريف النعمة.. وحتمية تحديد من يتم منحها لهم.

أما كونها مبدأ .. اختار الله من اختاره طبقاً لهذا المبدأ.. فهذا ما نقرأه: «الَّذِي خَلَّصَنَا وَدَعَانَا دَعْوَةً مُقَدَّسَةً، **لاَ بِمُقْتَضَى أَعْمَالِنَا، بَلْ بِمُقْتَضَى الْقَصْدِ وَالنِّعْمَةِ**....» (٢تي١: ٩).

فمنح النعمة (كتعريف) هو للمختارين.. لكن على أي أساس تم هذا الاختيار؟.. هل على أساس الأعمال؟.. أي بمقتضى الأعمال؟ .. إن الرسول ينفي ذلك.. ويضيف أنه بمقتضى **النعمة «كمبدأ»** .. وليس فقط بمقتضى **القصد** كما سبقت الإشارة (الاعتبار الأول).

وحتى ندرك مبدأ **النعمة** نتأمل الشق المختص **بالحق** .. إذ أن المسيح لم يأت فقط مملوءاً نعمة.. بل «مملوءاً **نعمة وحقاً**» (يو١: ١٤).

فهلاك الرافضين جميعاً.. أمر محتم.. اتساقاً مع عدالة الله.. وتطبيقاً للنص المختص بالموت كأجرة للخطية (رو٦: ٢٣) (راجع الاعتبار الثاني).. وهذا هو **الحق**؛ إهلاك الجميع.

أما أن يختار الله في الأزل، من بين هؤلاء الهالكين أناساً للحياة الأبدية.. دون استحقاق منهم.. ودون عمل يؤهلهم لذلك.. ويموت المسيح نيابة عنهم[٢٤].. مسدداً **حق الله** الذي عليهم.. فيهبهم الله، على هذا الأساس، كل بركة روحية في السماويات.. فهذه هي **النعمة كمبدأ** (وليس كتعريف).

فليست هذه البركات **حقاً أصيلاً** للإنسان.. ولا حتى **حقاً مكتسباً** (بعمل أو خلافه).. لأنها إن كانت حقاً فقد انتفى **مبدأ النعمة**.

لأنها إن كانت حقاً، كانت **ديناً** على مانحها.. ولا حاجة لي عندئذ أن **ينعم** بها أحد عليّ .. بل آخذها **كأجرة** أستحقها.. **وكحق** مكتسب بعملي.

مبدأ النعمة عكس مبدأ الاستحقاق.. وإلى ذلك يشير الرسول الفطن بولس عندما كتب: «أَمَّا الَّذِي **يَعْمَلُ** فَلاَ تُحْسَبُ لَهُ الأُجْرَةُ عَلَى سَبِيلِ **نِعْمَةٍ** بَلْ عَلَى سَبِيلِ **دَيْنٍ**» (رو٤: ٤).

أما المختار أزلاً فلم يعمل شيئاً يرجح به كفة اختياره الأزلي.. لذلك فكما كان اختياره الأزلي بمقتضى **القصد** الإلهي (الاعتبار الأول)، كذلك أيضاً كان اختياره -لأنه لم يعمل شيئاً- بمقتضى **النعمة** الأزلية (٢تي١: ٩)

طبقاً لقول الرسول بولس.. وبمقتضى **الرحمة الإلهية** (١بط١: ١، ٣) طبقاً لقول الرسول بطرس.. وليس بمقتضى **عمل مستقبلي** يقوم به، طبقاً لقول البعض.

ويكتب الفاضل الأخ **«برسوم ميخائيل»** : [كان **العدل** هو ما يستحق أن يعامل الله به الجميع.. لكنه اختار في سلطانه المطلق طبقاً لحرية إرادته أن يستعمل **النعمة** مع من يشاء .. ويترك الباقين **للعدل**.. فاختار من شاء ليرحمهم من شرهم **نعمة منه**.. وترك الباقين لشرهم وهلاكهم **عدلاً منه**]

وإن كان الله قد اختار من سوف يعاملهم بالنعمة، فليس معنى ذلك أنه اختار في المقابل من سوف يعاملهم بالعدل.

لا يوجد في الكتاب المقدس كله اختيار أو تعيين أزلي للهلاك (راجع الاعتبار الأول).. ولا حتى اختيار وتعيين أزلي لترك البعض لشرهم، المؤدي إلى هلاكهم التلقائي.

فمعاملة الجميع بالعدل، هي القاعدة والأساس **للجميع**.. دون احتياج لاختيار أو تعيين.. وتركهم لشرهم نتيجة رفضهم الدعوة.. هو إجراء عادل يستحقه الجميع في الزمان.. ليهلكوا بعده في الأبدية.. دون احتياج لاختيار أو تعيين.. ومن **ضمن الأدلة** على ذلك أن «النار الأبدية» ليست معينة لبشر، هم مختارون ومعينون لها.. بل هي «**مُعَدَّةِ لإِبْلِيسَ وَمَلاَئِكَتِهِ**» (مت٢٥: ٤١). . (بالإضافة إلى الأدلة المذكورة في الاعتبارين الأول والثاني).

بينما **معاملة البعض بالنعمة**، هو استثناء من القاعدة، يستلزم بالضرورة اختياراً من مانح هذا الاستثناء لمن سيمنحهم إياه.

أما لماذا هذا الاستثناء أصلاً؟ .. فلأن الله هو «**إله كل نعمة**» (١بط٥: ١٠).. ولا شئ يستطيع أن يوقف سريان نعمته.. لذلك فبالإضافة إلى أن له مطلق السلطان والحرية في كل أفكاره وأعماله، كما سبق ورأينا.. وبالإضافة لكونه الديان العادل (تك١٨: ٢٥، مز٧: ١١).. فإنه أيضاً «**إله كل نعمة**» (١بط٥: ١٠).. يرحم من يرحم.. ويترأف على من يترأف (رو٩: ١٥).. بدافع نعمته .. ما دام سيدفع - تطبيقاً لعدالته - كلفة رحمة هؤلاء في الصليب.. فجميع صفات الله، من عدالة ورحمة وغيرها، تسير جنباً إلى جنب في توافق مطلق (مز٨٥: ١٠).

ألا يوجد ظلم.. أو شبهة ظلم للبعض.. في هذا الاستثناء؟

نقول العكس.. إن الظلم يكون واقعاً على الله لو أن للجبلة سلطان أن تستغل حريتها في رفض دعوة جابلها واستمرارها في صنع ما يهينه.. ولا يكون لجابلها سلطان أن يستعمل حريته في تركها تتحمل عواقب عصيانها وإهانتها له.. لا ينتقص من عدالته إن استعمل حريته أيضاً في رحمة بعض الأواني من هذه الجبلة .. وقد أهانته أيضاً نظير باقي الأواني.. فيرحمها وذلك لتأخذ رحمته مجراها بالتوازي مع حريته وسلطانه.

فإن صنع الفخاري من كتلة واحدة من الطين - وكلها طين واحد - إناء للكرامة (رو٩: ٢١)، دون استحقاق من جانب هذا الإناء، كانت هذه هي النعمة (كمبدأ).. وإن ترك باقي الأواني لحالهم الرافض دعوته، كأوان للهوان (رو٩: ٢٢)، وعاقبة ذلك، كان هذا هو الحق أو العدل .. دون غبن أو ظلم.

فهل يؤاخذ الله أو يُلام، إن استثنى البعض من المعاملة بالعدل، حتى تأخذ نعمته مجراها فيهم.. وذلك ليس فقط رحمة لهم.. لكن أيضاً

قبل ذلك ليكونوا مجالاً لممارسة كافة صفاته، في تناغم كامل.. بما فيها كونه «**إله كل نعمة**»؟

ولسنا بحاجة إلى تكرار ما سبق من أن الدعوة قدمت للجميع (مت١١: ٢٨).. والنعمة ظهرت لجميع الناس (تي٢: ١١).. لمن قبلها ومن رفضها.. ولا عذر لمن رفضها بزعم أنه غير مختار.. إذ من أدراه؟.. (راجع الاعتبار الثالث)

وقبل أن نختم كلامنا نود أن نقول أن المختار قد:

اختير بالنعمة كمبدأ. ليتمتع بالنعمة كتعريف.

وأختتم بأبلغ ما كتبه المفكر الكبير وصاحب نوبل الأستاذ «**نجيب محفوظ**» .. وهو يلخص - دون قصد منه- موضوع الاختيار الذي يحير الأغلبية.. وذلك من خلال أقصر ما كتب.. وهو في سطرين اثنين.. عندما سأل الأستاذ.. الشيخ **عبد ربه** (عبد لربه هو. أياً كان دينه.. سواء كان عبد المسيح .. أو عبد الرحمن).

الأستاذ: كيف تكون النهاية؟
الشيخ عبد ربه: إن هلكنا فهذا هو العدل.
وإن نجونا فتلك هي الرحمة.

فالهلاك من وجهة نظر هذا الأديب هو العدالة التي يستحقها الجميع دون ظلم.. أما إن نجا أحد من هذا الهلاك فتلك هي الرحمة.

أما الكاتب والصحفي «**إبراهيم عيسى**» ، فكتب «**لا يدخل أحد الجنة بأعماله، بل برحمة من الله**»

لقد «تَهَلَّلَ يَسُوعُ بِالرُّوحِ وَقَالَ: «**أَحْمَدُكَ أَيُّهَا الآبُ** (الآب بالنسبة له) **رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** (بالنسبة لجميع من في السماء وفي الأرض.. وليس فقط لأصحاب دين بعينه) لأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هَذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ» (لو١٠: ٢١).

فإن رفض بعض المسيحيين إعلاناً كتابياً - كحقيقة الاختيار - هو عين العقل والمنطق - جاءهم الرد من أصحاب العقل وأهل المنطق؛ عبيد ربهم.. **رب السماء والأرض**.. مثل الشيخ عبد ربه.

حقاً أن «أَبْنَاءَ هَذَا الدَّهْرِ أَحْكَمُ مِنْ أَبْنَاءِ النُّورِ فِي جِيلِهِمْ» (لو١٦: ٨).

لهذا كانت صلاة الرسول بولس من أجل أهل أفسس أن: «يُعْطِيَكُمْ إِلَهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ، رُوحَ **الْحِكْمَةِ وَالإِعْلاَنِ** فِي مَعْرِفَتِهِ، مُسْتَنِيرَةً عُيُونُ أَذْهَانِكُمْ، لِتَعْلَمُوا مَا هُوَ رَجَاءُ دَعْوَتِهِ، وَمَا هُوَ غِنَى مَجْدِ مِيرَاثِهِ فِي الْقِدِّيسِينَ، وَمَا هِيَ....الخ» (أف١: ١٧، ١٨..).

فإن عجزت عقولنا القاصرة عن **اكتساب حكمة «روح الحكمة»** في فهم ما يختص بدعوتنا .. لمحدودية الإدراك، كالأطفال .. فلعلها لا ترفض أيضاً ما لا يحتاج إلى حكمة.. بل إلى قبول فقط.. باكتساب «**روح الإعلان**».. ما دمنا أطفالاً؛ «**أَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ**» (مت١١: ٢٥)

«وَإِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ تُعْوِزُهُ **حِكْمَةٌ** فَلْيَطْلُبْ مِنَ اللهِ الَّذِي يُعْطِي الْجَمِيعَ بِسَخَاءٍ وَلاَ يُعَيِّرُ، فَسَيُعْطَى لَهُ» (يع١: ٥)

وخلاصة الاعتبار السابع
وهو نعمة الله

أولاً: إن هلاك الرافضين جميعاً هو ما يستحق أن يؤول إليه الجميع.. وهذا هو العدل.

ثانياً: أن يختار الله في الأزل من بين هؤلاء الهالكين أناساً للحياة الأبدية دون استحقاق منهم.. ويموت المسيح نيابة عنهم.. مسدداً حساب العدالة الإلهية الذي عليهم .. ثم يدعوهم في الزمان .. فهذه هي النعمة كمبدأ .. ليتمتعوا بعد ذلك بالنعمة كتعريف .. أي بكل بركاتها الروحية من خلاص.. وتبرير .. ووصول إلى حضرة الله.. في الزمان .. وأبدياً.. متمماً فيهم قصده الأزلي.. في نهاية الأمر.

ثالثاً: ترك الرافضين - بعدما تقسوا برفضهم الدعوى لتحمل نتيجة قساوتهم - لا يتعارض مع عدالة الله.. بل هو تمام الاتفاق، وعين الاتساق، لعدالة الله مع نعمته ورحمته.

رابعاً: إن كان اختيار الله الأزلي مؤسساً على عمل مستقبلي يقوم به المختار، ومن ثم وَجَبَ على الله أن يختاره -فبالإضافة إلى أن هذا ينتقص من سلطان الله (الاعتبار الأول) - فإنه ينفي أيضاً قيام الاختيار على أساس النعمة كمبدأ (٢تي١: ٩).. ويجعله على أساس العمل المستحَق للأجرة كدين (رو٤: ٤) الأمر الذي يتعارض مع ا لوحي.

ملاحق

ملحق ١: إن كنا لا نقدر أن نعرف عن حقيقة ذات الله، ومقاصده، إلا بقدر ما أعلنه لنا في كتابه.. إلا أن حقيقة وجوده، وقدرته، يمكن إدراكها من كتاب آخر - إضافة للكتاب المقدس- وهو كتاب الطبيعة. فـ «اَلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللهِ وَالْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ» (مز١٩ : ١).. وهو الكتاب الذي يخاطب من لا كتاب لهم.. ذلك «لأَنَّ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ (قبل أي كتاب) تُرَى أُمُورُهُ (أمور الله) غَيْرُ الْمَنْظُورَةِ وَقُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةُ وَلاَهُوتُهُ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ» (رو١: ٢٠).

ملحق٢: اختيار الله يعقوب للسيادة دون عيسو، قبل أن يولدا، ولا فعلا خيراً أو شراً، جعل البعض يظنون أن العبارة: «أَحْبَبْتُ يَعْقُوبَ وَأَبْغَضْتُ عِيسُوَ» قيلت هي أيضا قبل أن يولدا.. وبذلك ينسبون لله بغضه أشخاصاً قبل أن يولدا أو يفعلا خيراً أو شراً.. والحقيقة أنهم في قراءتهم للنص يغفلون عبارة «كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَحْبَبْتُ يَعْقُوبَ وَأَبْغَضْتُ عِيسُوَ» (رو٩: ١٣).. متى كُتب هذا المكتوب؟.. كُتب بعد ميلادهما بأكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان (ملا١: ٢، ٣) ..ظهر خلالها شر عيسو (عب١٢: ١٦، ١٧).. ثم شر نسله من بعده، في مقاومة الله، وشعبه.. فجاءت هذه الكلمات: «أَحْبَبْتُ يَعْقُوبَ وَأَبْغَضْتُ عِيسُوَ».. كنتيجة تاريخية لاحقة .. وليست كتعيين قديم سابق.

ملحق ٣ : بالإضافة إلى كون أعمال الإنسان اللاحقة لا دور لها في الاختيار

الأزلي، فإن نوعيات المختارين أيضاً لا دور لها.
وقد يفتكر البعض أنه إن كان الله قد اختار «جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ وَاخْتَارَ .... ضُعَفَاءَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الأَقْوِيَاءَ وَاخْتَارَ.... أَدْنِيَاءَ الْعَالَمِ وَالْمُزْدَرَى وَغَيْرَ الْمَوْجُودِ لِيُبْطِلَ الْمَوْجُودَ» (١كو١: ٢٧، ٢٨).. فبالتالي هناك فئات معينة من الناس تحكمت نوعياتها الفئوية (لا أعمالها) في اختيار الله لها.. وبذلك ينتفي سلطان الله المطلق.. بل يصبح مشروطاً باتصاف هذه الفئات بالجهل، والضعف، والدناءة .. لكن بقراءة العدد السابق (ع٢٦) نجد نفياً لهذا الفكر إذ يقول: «فَانْظُرُوا دَعْوَتَكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنْ لَيْسَ كَثِيرُونَ حُكَمَاءُ حَسَبَ الْجَسَدِ. لَيْسَ كَثِيرُونَ أَقْوِيَاءَ. لَيْسَ كَثِيرُونَ شُرَفَاءَ بل....» فيما يعني وجود الحكماء مع الجهلاء.. والأقوياء مع الضعفاء.. والشرفاء مع الأدنياء، ضمن هؤلاء الكثيرين.. فيمن اختارهم .. بل أننا نقرأ في (رؤ٥: ٩) أن هؤلاء المختارين؛ «مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَشَعْبٍ وَأُمَّةٍ».
أما لماذا ركز الرسول في كلامه على اختيار الله الجهلاء والضعفاء والأدنياء وغير الموجود.. فذلك لكي يبين أن الله يريد أن يبطل الموجود (أي أصحاب الشأن).. لئلا يظن أحد أن اختياره تم لكونه صاحب شأنٍ من علمٍ أو قوة أو شرف.. فيفتخر بذلك.. «لِكَيْ لاَ يَفْتَخِرَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ أَمَامَهُ» (١كو١: ٢٩).. فيما لا ينفي الاختيار من جميع الفئات.. والقبائل.. والشعوب.

ملحق ٤ : عندما يقول الرب: «دَعَوْتُكَ بِاسْمِكَ» (إش٤٣: ١).. وعندما يقول أيضاً: «يَدْعُو خِرَافَهُ الْخَاصَّةَ بِأَسْمَاءٍ» (يو١٠: ٣).. أو يكتب الرائي: «الَّذِينَ لَيْسَتْ أَسْمَاؤُهُمْ مَكْتُوبَةً .... فِي سِفْرِ حَيَاةِ الْحَمَلِ» (رؤ١٣: ٨) .. هل هذه هي الأسماء التي أطلقها الوالدون على أبنائهم، في شهادات الميلاد؟.. وإن كان كذلك، فهل يكتفي الله في سجلاته بالاسم ثلاثياً، أم رباعياً؟.. وماذا لو تشابهت

الأسماء؟.. بالقطع ليست الأسماء لدى الله هي الأسماء في شهادات الميلاد .. لأن الأخيرة أسماء حركية لزوم مرحلة معينة هي مرحلة الحياة الحاضرة.. تسقط هذه الأسماء بعد انتهاء هذه المرحلة.. وزوال «هَيْئَةَ هَذَا الْعَالَمِ» (١كو١: ٣١).

إذا ما هي - أو كيف تكون - الأسماء لدي الله؟

كان القاضي إلى وقت قريب - تحقيقاً للعدالة- لا يكتفي -لتحديد الهوية- بالأسماء في شهادة الميلاد، بل يطلب صورة بصمات الأصابع.. ثم أصبح الآن - إمعاناً في تحقيق العدالة- يطلب البصمة الجينية، التي لا تتكرر مرتين، إلا إذا بلغ سكان العالم ١٠ مليار نسمة.. وقتها ربما نجد اثنين يتشابهان في هذه البصمة.

فهل يكون الله «دَيَّانَ الأَرْضِ كُلِّهَا» (تك١٨: ٢٥)، والقاضي العادل (مز٧: ١١)، أقل دقة من «قُضَاةِ الأَرْضِ» (مز٢: ١٠)؟.. وهل يكتفي فقط بالبصمة الجينية، أم يطلب معها البصمة السيكولوجية النفسية أيضاً ؟.. كلا.. بل أكثر من هذه وتلك.. فالله «فَاحِصَ الْقُلُوبِ وَالْكُلَى» (مز٧: ٩).. **فهو** فاحص القلوب **(أي الكيان المعنوي** من ذات عاقلة مريدة، **مع الكيان النفسي** من **مشاعر وأحاسيس** وخلافه).. وأيضاً مختبر الكلى (أي **الكيان المادي الجسدي والجيني** وخلافه).

فالأسماء لدى الله هي هويات لذوات كاملة روحاً ونفساً وجسداً.. وليست أسماء حركية يغلب تكرارها .. ولا حتى بصمات جينية يندر تكرارها.

ولما كان تحديد الهوية في «قوانين الإجراءات» يسبق تداول القضية، أو صدور الأحكام .. فمما يثير العجب أننا نجد هذا الترتيب في المزمور السابع.. ففي (ع٩) **نجد الله فاحص القلوب والكلى**.. محدداً الهوية **أولاً كإجراء قانوني**.. ثم بعد ذلك في (ع١١) **نجده القاضي العادل.. فيا للعدالة!!**

ملحق ٥ : إن كان الله لم يختر ولم يعين أحداً للهلاك، فكيف يقول الرب عن يهوذا أنه «ابن الهلاك» (يو١٧: ١٢).. فيما يوحي للبعض بأن يهوذا مختارٍ ومعين - أزلاً- للهلاك؟.. والإجابة نجدها في نص قول الرب: «اَلَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ابْنُ الْهَلاَكِ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الذي يأكل معي الخبز رفع علي عقبه» (يو١٣: ١٨).. راجع أيضاً (أعمال١: ٢٠).

وهنا نلاحظ أن النبوة لا تقول أنه ابن للهلاك.. بل تتنبأ عن فعلته فقط .. لا عن نتيجتها .. وفعلته هذه (أي تسلميه الرب) كتبت عنها هذه النبوات في تاريخ محدد.. الذي وإن كان سابقاً لوجوده (بأكثر من عشرة قرون) لكنه ليس أزليا.

ما هو هذا المكتوب عن يهوذا وفعلته؟ .. هو ما جاء في (مز ١٠٩: ٦ - ٢٠) و (في مز ٤١ : ٩) .. **كقراءات نبوية سابقة لتاريخه** .. وليس كتعيين أزلي - أو حتى نبوي - لهلاكه.

ولما كانت النتيجة الحتمية لفعلته المتنبأ عنها، هي **الهلاك**، لذلك فهو **ابن للهلاك نتيجة** لهذه الفعلة.. وليس سبباً لها.

ملحق ٦ : الله عرف إبراهيم **أولاً**، **لكي** يخبر بنيه **بعد ذلك** .. ونلاحظ كلمة **لكي** السببية.. أي أن معرفة الله إبراهيم **أولاً**، هي التي كانت **سببا** دفع إبراهيم لإخبار بنيه **بعد ذلك** .. وليس العكس.. لأنه لو كان إخبار إبراهيم لبنيه هو السبب في معرفة الله السابقة له، لورد النص هكذا: «لأني عرفته **لأنه** سوف يخبر بنيه.. وليس **لكي** يخبر بنيه».

إن هناك مبدأ شبه مستقر لدى البعض؛ وهو أن للإنسانٍ الدور الأول والأكبر في العلاقة مع الله .. فإبراهيم يخبر بنيه أولاً.. ثم يعرفه الله بعد ذلك.. والإنسان هو الذي يتوب أولاً.. ثم يقبله الله بعد ذلك.. هكذا يظنون.. وليس كما يقول النبي «تَوِّبْنِي

(أولاً) فَأَتوبَ (بعد ذلك)» (أر٣١: ١٨).. أو كما يكتب الرسل عن أن التوبة هي عطية من الله (أع٥: ٣١ و١١: ١٨ و٢تي٢: ٢٥).. وقس على هذا.. فالحقيقة أن الدور الأول - حتى في التوبة- هو لله.. وليس للإنسان.. فبالأولى كثيراً يكون الدور الأول في الاختيار الأزلي هو لله.

ملحق ٧ : ناهينا عن أن محافظة الله على عرقهم لم تكن فقط حفاظاً على عبادتهم واستئمانهم على أقوال الله، بل كانت أيضاً حتى يأتي المسيح منهم حسب الجسد (رو٩: ٥).. تنفيذاً لوعد الله لإبراهيم: «وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ (أي المسيح) جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ» (تك٢٢: ١٨).

ملحق ٨ : وعن المؤمنين يضيف الرسول: «وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَسْتُمْ فِي الْجَسَدِ بَلْ فِي الرُّوحِ إِنْ كَانَ رُوحُ اللهِ سَاكِنًا فِيكُمْ» (رو٨: ٩).

ملحق ٩ : كلامنا عن تمثيل الشعب القديم للبشرية كلها في عجزهم أمام الناموس، كان لإثبات عدم وجود عقد إذعان ملزم للبشرية من طرف واحد؛ هو الله.
لكن هذا لا ينفي مسئولية الأمم (غير اليهود) أيضاً.. فعدم وجود ناموس مباشر لهم -كناموس موسى- كان من الممكن أن يعفيهم من العقوبة الزمنية ، وهي الرجم طبقاً للناموس، لأن «الْخَطِيَّةَ لاَ تُحْسَبُ إِنْ لَمْ يَكُنْ نَامُوسٌ» (رو٥: ١٣).. لكنهم ماتوا حرفياً، دون رجم، ليس بسبب كسر ناموس موسى، بل لسبب كونهم في آدم.. أي غير مسئولين عن هذا الموت الحرفي.
أما المسئولية الأبدية وعقوبتها الموت الأبدي، فتظل عالقة برقابهم، ذلك لأنه كان عندهم ناموس خاص بهم.. ما هو؟..
نقرأ: «لأَنَّهُ الأُمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ (ناموس موسى) مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ فَهؤُلاَءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ

النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لأَنفُسِهِم الَّذِينَ يُظْهِرُونَ عَمَلَ النَّامُوس مَكْتُوباً فِي قُلُوبِهِمْ شَاهِداً أَيْضاً ضَمِيرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ فِيمَا بَيْنَهَا مُشْتَكِيَةً (متهمة إياهم) أَوْ مُحْتَجَّةً (مدافعة عنهم)» (رو٢: ١٤، ١٥).. «إِذْ مَعْرِفَةُ اللهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ لأَنَّ اللهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ» (رو١: ١٩).. لكنهم «لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلَهٍ بَلْ حَمِقُوا فِي أفكَارِهِمْ.... وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ» (رو١: ٢١ - ٢٥).. «لِذَلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ إِلَى النجاسة» (ع٢٤).. و«إِلَى أَهْوَاءِ الْهَوَانِ» (ع٢٦) .. و «إِلَى ذِهْنٍ مَرْفُوضٍ لِيَفْعَلُوا مَا لا يَلِيقُ» (ع٢٨) .. «الأُمُورِ التي بسببها يَأْتِي غَضَبُ اللهِ (أبديا) عَلَى أَبْنَاءِ الْمَعْصِيَةِ» (كو٣: ٦).

لذلك إن كان الموت الحرفي قد ملك على الجميع بسبب خطية آدم [على الذين حُسبت لهم خطيتهم - بعد موسى - وعلى الذين لم تحسب لهم خطيتهم ، من آدم إلى موسى (رو٥:)] فهذا لا يعفي من لم تُحسب لهم خطيتهم (أي لم تكن السبب في موتهم الحرفي) من مسئوليتهم الأبدية.

فأن يموتوا حرفياً في آدم شيئ - حتى لو لم يخطئوا احتساباً - وأن يكونوا مسئولين أبدياً عن خطيتهم - فعلاً لا احتساباً - شيئ آخر (راجع العدد التاسع بعنوان «السجين الحالم»).

ملحق ١٠ : من هو القريب؟ .. ارجع إلى إنجيل لوقا (١٠: ٢٩ - ٣٧).

ملحق ١١ : لن يعودالزمن إلى الوراء.. ولن يعطي الله -بعد صليب المسيح- نواميس أخرى لنوال الحياة الأبدية.. لكن كلامنا هنا هو نوع من الجدل.

ملحق ١٢ : القسط هو العدل.

ملحق ١٣ : عندما يقول الرب في ختام المثل المذكور في (مت٢٠: ١٦)، وأيضاً في (مت٢٢: ١٤) أن «كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ»..

هل يفهم من هذا أن هناك أناساً غير مدعوين هم ناتج طرح (الجميع ناقص الكثيرين)؟.

بالطبع لا.. إنما الغرض من كلام الرب أن دائرة الدعوة أوسع من دائرة الاختيار.. فإن كانت الدعوة هي للكثيرين.. فإن الاختيار هو للقليلين.

وبما سبق ذكره في «الاعتبار الأول» فإن الدعوة هي للجميع.

ملحق ١٤ : العشاء عظيم، لأنه يليق بالله العظيم، وما أعده الله في هذا العشاء هو قبل أن يكون لتسديد إعواز الإنسان.. كان أولاً لشبع الله، ومسرة قلبه.. لذلك لم يرد في هذا المثل ذكر للتوبة.. أو الغفران (مع أنه حادث).. بل فقط ذكر الشبع بما أعده الله.

- وفي مثل الابن الضال، نرى هذا بوضوح.. فلم تكن الوليمة التي أعدها الأب هي فقط لتسديد احتياج الابن الراجع بل كانت لـ «**نَأْكُلَ وَنَفْرَحَ**» (لو١٥: ٢٣) جميعاً.. وليس فقط ليأكلها الولد الجائع وحده.. هنا نرى مسرة الآب.. أو «**مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ**» (أف١: ٥).

وما الحلة الأولى إلا خير دليل على ذلك.. فهي أكبر من احتياج الابن للعفو.. إنها ما يسر قلب أبيه أن يراه فيها.. وهكذا بالنسبة لله، فإن الذين سبق فعرفهم سبق فعينهم - لا ليعفو عنهم فقط .. وهذا ما يحتاجون إليه - بل ليكونوا مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً بين أخوة كثيرين؛ هم عروس هذا الابن.. أم ليس من حق الآب السماوي أن يختار عروساً لابنه.. ثم يعدها بعد ذلك لتكون نظيره؟

لذلك فالاختيار الأزلي قبل أن يكون رحمة من الله لمن اختار أن يرحمهم (رو٩:)، كان بالدرجة الأولى لـ«**مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ**» (أف١: ٥).. «.... **الَّتِي قَصَدَهَا (أزلاً) فِي نَفْسِهِ**» (أف١: ٩).

ملحق ١٥ : المدعوون الأصليون في هذا المثل، هم من الناحية الرمزية يمثلون الشعب القديم.. وقد استعفوا جميعاً (لو١٤: ١٨).. فهم بعدما فشلوا تحت الناموس، قدمت لهم دعوة النعمة؛ «إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ .... مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً» (يو١: ١١، ١٤).. لكنهم استعفوا، «وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ» (يو١: ١١) .. فاتجهت الدعوة إلى الغرباء عن خاصته.. الذين هم في الشوارع والأزقة.. في الطرق والسياجات (لو١٤: ٢١، ٢٣).. أي الأمم.. وكما استعفى المدعوون الأصليون، كان سيستعفي الغرباء بالأولى.. لولا أن العبد ألزمهم بالدخول (لو١٤: ٢٣).

وهكذا برفض المدعويين الأصليين، انفتح الباب للغرباء.. لأنه «بِزَلَّتِهِمْ صَارَ الْخَلاَصُ لِلأُمَمِ» (رو١١: ١١)

ملحق ١٦ : لأن يوحنا هو «التِّلْمِيذُ الَّذِي كَانَ يَسُوعُ يُحِبُّهُ» (يو٢١: ٢٠).. ولأنه كان يتمتع بهذه المحبة بكفاية جعلته يتكئ «فِي حِضْنِ يَسُوعَ» (يو١٣: ٢٣)، لذلك كان يقدر أن يستوعب معنى الإلزام مع منظور هذه المحبة، فيراه جذبا.. الأمر الذي مكّن الروح القدس من أن يعلن له تلك العبارة: «**يَجْتَذِبْهُ الآبُ**».. فيدونها في إنجيله.

هكذا كل من يتمتع بهذه المحبة بكفاية، لن يجد غضاضة في قبول حقيقة الإلزام.. بصفته **إلزاماً حبياً**.

ملحق ١٧ : كون الدعوة مكررة يعني أن «اللهُ يَتَكَلَّمُ مَرَّةً وَبِاثْنَتَيْنِ» (أي٣٣: ١٤).. وأكثر؛ «كَمْ مَرَّةٍ أَرَدْتُ .... وَلَمْ تُرِيدُوا».. (لو٢٣: ٣٧).. وهذا خلال الوقت المقبول..لأنه يقول: «فِي وَقْتٍ مَقْبُولٍ سَمِعْتُكَ، وَفِي يَوْمِ خَلاَصٍ أَعَنْتُكَ. هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ. هُوَذَا الآنَ يَوْمُ خَلاَصٍ» (٢كو٦: ٢).

ملحق١٨ : عندما يرفض شخص الدعوة الإلهية المقدمة إليه بالنعمة مراراً وتكراراً في قساوة، يصادق الله على قساوته هذه..إذ

بعدما «يتكلم (الله) مَرَّةً وَبِاثْنَتَيْنِ لاَ يُلاَحِظُ الإِنْسَانُ.... حِينَئِذٍ .... يَخْتِمُ عَلَى تَأْدِيبِهِمْ» (أي ٣٣: ١٤- ١٦) .. أي يسلمهم للقساوة القضائية. في البداية تقسوا اختيارياً.. وفي النهاية يتقسون قضائياً.

وهذا ما نراه في فرعون..فقد قسى قلبه اختيارياً سبع مرات.. فقسى الرب قلبه تأديبياً ثلاث مرات.. «لأَنَّهُ يَقُولُ الْكِتَابُ لِفِرْعَوْنَ: إِنِّي لِهَذَا بِعَيْنِهِ أَقَمْتُكَ لِكَيْ أُظْهِرَ فِيكَ قُوَّتِي» (رو٩: ١٧).. وذلك بعدما قسى الرب قلبه (قلب فرعون) قضائيا(خر٧-١١).. فإذا هو يرحم من يشاء (كما رأينا سابقاً) ويقسي من يشاء (قضائياً).. أي يترك من لا يرحمه - كما سبقت الإشارة- فلا يلزمه .. بل يختم على تأديبه، بأن يقسيه قضائياً.

ملحق١٩ : في المثل المذكور في (لو١٤) نجد الدعوة هي إلى عشاء (ع١٦). بينما في المثل المذكور في (مت٢٢) نجد الدعوة إلى غداء (ع٤). فهل هو غداء.. أم عشاء؟.. وهل هناك بين كتابات البشيرين تعارض؟.. أم نَسَخَ أحدهما للآخر؟

لا هذا ولا ذاك.

أولاً: المثلان قالهما الرب في مناسبتين مختلفتين.. الأولى؛ في بيت رئيس للفريسيين (لو١٤: ١) .. والثانية؛ في الهيكل (مت٢١: ٢٣).. فهما مثلان وليسا مثلاً واحداً.. تعارض فيه كلام البشيرين؛ متى ولوقا.. أو نسخ أحدهما الآخر.

ثانياً: الطعام واحد في المثلين.. والدعوة هي للجميع في المثلين.

إنما لأن إنجيل متى كتب لليهود .. والدعوة وجهت إليهم أثناء وجود الرب بالجسد بينهم.. ولأن الرب شبه وجوده بينهم بساعات النهار الاثنتي عشرة (يو٩: ٤، ٥، ١١: ٩).. **ولأن الغداء** يكون في النهار (يو٢١: ١٢، ١٥).. لذلك كانت الدعوة في مثل إنجيل متى هي إلى غداء.

بينما لأن إنجيل لوقا كُتب للأمم.. ولأن الدعوة المقدمة لهم كانت بعد غياب الرب عن عالمنا بالجسد..أي في الوقت المشبه بالليل (يو٩: ٤، ٥).. ولأن العشاء يكون في الليل.. مثلما حدث «فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي أُسْلِمَ فِيهَا» (اكو١١: ٢٣).. حيث «تَعَشَّوْا» (اكو١١: ٢٥).. لذلك كانت الدعوة في مثل إنجيل لوقا هي إلى عشاء.

فما أدق كلمة الله.. إذ «لِكُلِّ كَمَالٍ رَأَيْتُ حَدّاً أَمَّا وَصِيَّتُكَ فَوَاسِعَةٌ جِدّاً» (مز١١٩: ٩٦)

ملحق ٢٠: البعض يوافق على مبدأ الاختيار الأزلي لكنه يعترض على فكرة الإلزام.

ونحن نسأله: ماذا لو قدمت الدعوة لشخص هو مختار أزلاً.. ثم رفضها؟.. هل سيُلغى اختياره الأزلي؟

سيرد المعترض.. بأن هذا الشخص طالما كان مختاراً أزلاً، فلابد أن (لازم يعني) يقبل الدعوة..

نقول له اتفقنا.. فكلمة «لازم» نفسها تعني الإلزام.. أي أنه ملزم بقبول الدعوة.

أما إن كان هناك اختيار لشخص في الأزل دون إلزام في الزمان.. ترتب على هذا وجود احتمال أن هذا المختار يرفض الدعوة..وفي هذه الحالة، يكون قد أهان الله مرتين:

الأولى: برفضه الدعوة.. (الاعتبارات الرابع والخامس والسادس).

الثانية: بإبطال اختيار أزلي قصده الله في نفسه.

وناهينا عن هذه الإهانة المزدوجة، فإننا نجد أن موقف الإنسان، في هذه الحالة، قد سافر إلى الأزل ليؤثر سلباً على اختيار الله الأزلي.

وكما سبقت الإشارة إلى استحالة أن يكون لأعمال الإنسان في الزمان يد تمتد إلى الأزل لتؤثر إيجاباً على اختيار الله (فتجعله يختار هذا الشخص).. كذلك العكس هو صحيح أيضاً؛ وهو

أنه ليس لأعمال الإنسان في الزمان يد تمتد إلى الأزل لتؤثر سلباً على اختيار الله (فتجعله يلغي اختيار هذا الشخص، بعدما اختاره).

ملحق ٢١: أمران كان أحدهما كافياً لإثبات صدق نبوة الأنبياء.
الأول: أن تتحقق نبوتهم في حياتهم مثلما حدث من يوحنا المعمدان.. فقد تحققت نبوته بمجئ المسيح .. لذلك «لَمْ يَفْعَلْ (يوحنا) آيَةً وَاحِدَةً» (يو١٠: ٤١) .. رغم أنه - من دون المولودين من النساء- امتلأ بالروح القدس من بطن أمه.
الثاني: إن لم تتحقق نبوة النبيٍ في حياته، كان الله يؤيده بالآيات الخارقة (التي كانت تفويضاً إلهياً مفتوحاً.. دون الرجوع إلى الله بالصلاة قبل إجراء الآية).. وذلك مثل موسى (خر٤).. ومثل التلاميذ (مر١٦: ١٧، ١٨).
أما الرب يسوع فقد تم له الأمران معاً.

ملحق ٢٢: محبة الله - كما كل صفاته - هي عاملة فيه أزلاً - أي بينه وبين نفسه - كالواحد **وحدانية جامعة** .. تلك الوحدانية التي تجُبّ تعطل صفاته أزلاً.. فالآب الأزلي، يحب الابن الأزلي، محبة أزلية.. دون احتياج من الله أن يخلق في الزمان من يحبه.. وهكذا بالنسبة لباقي صفات الله.
أما إن كان الله أزلاً، قد رآنا في المسيح أزلاً، وأحبنا فيه أزلاً، واختارنا فيه أزلاً.. فليس معنى هذا أنه كان مضطراً لخلقنا، في يوم ما، حتى يمارس محبته هذه.. إلى آخر صفاته.. بل هي ممارسة فيه أزلاً.. سواء خلقنا أم لم يخلقنا.
أما الكلام في متن الكتاب فهو يختص بنصيبنا من هذه المحبة الأزلية.

ملحق ٢٣: الله رآنا أزلاً في المسيح.. وليس في أشخاصنا أو أعمالنا.. الأمر الذي يؤكد مرة أخرى أن الإنسان - أو أعماله - لا دور له أو لها -

في تعامل الله الأزلي معه.. إذ هو في المسيح، الكائن أزلاً (يو١: ١)

ملحق٢٤ : وكما أن الاختيار بمقتضى النعمة التي أجزلت لنا في المسيح يسوعٍ، هو مخطط أزلي.. إذ قصد الله في نفسه أن يجزلها لنا أزلاً قبل الأزمنة.. ففي تمام التوافق والانسجام أن يكون موت المسيح أيضاً هوٍ مخطط أزلي.. إذ لا يليق بالله إلا أن يكون مشروعه متكاملاً منذ الأزل.. لذلك نقرأ أن المسيح «بِرُوحٍ أَزَلِيٍّ قَدَّمَ نَفْسَهُ لِلّهِ» (عب٩: ١٤).

فلم يختر الله من اختارهم أزلاً.. ليجزل لهم النعمة أزلاً.. ثم بعد ذلك في الزمان، يجدهم خطاة.. فيبحث عن حل طارئ يوفق به بين محبته لهم.. وبين عدم استحقاقهم لهذه المحبة بسبب خطاياهم .. أو بلغة أخرى بين رحمته وعدالته.. وبعد بحث وتداول، يجد هذا الحل في المسيح.. فيطلب منه أن ينزل ليموت عنهم.. فيقبل المسيح ذلك.. كلا.. بل مشروع الله، هذا هو مشروع متكامل منذ الأزل.

من النقوش الفرعونية

في غرفة الماميزي (الولادة) بمعبد الأقصر، هناك نقش يمثل الإله «خنوم» ؛ خالق البشر في هيئة فخاري يجلس أمام العجلة (الدولاب)، وبين يديه قطعة من الطين، يشكلها لتصبح الملك «آمون حتب الثالث» (أمونوفيس٣) .. والد الملك أخناتون.

ونفس المنظر يتكرر في معبد «حتشبسوت» بالدير البحري، حيث نرى نفس الإله؛ «خنوم» يجلس إلى عجلة الفخاري، وعليها كتلة من الطين، لكي يصنع منها الطفلة «حتشبسوت».. ويسويها لتصير ملكة المستقبل على عرش مصر.

لقد وصل القدماء إلى الفكر اللاهوتي المنطقي، الذي يوجب أن الإله - أياً كان في معتقدهم - حتى يكون إلهاً، لابد أن تكون له المبادرة، والمشيئة الأولى.. وبحسب «رأي مشيئته» هذه يختار من يختار من الطين، ليشكلهم ويقيمهم ملوكاً وملكات.

فهل كثير على الفكر اللاهوتي المسيحي أن يؤكد - منطقياً، بل وكتابياً - أن الله هو صاحب القصد والمشيئة.. وبحسب «رأي مشيئته» يعين المختارين - لا لملك أرضي زائل - بل للحياة الأبدية؟

أم أن سلطان الله في خليقته أقل من سلطان الخزاف (الفخاري) على الطين .. كما يتساءل الرسول بولس؟ (رو٨: ٢١).



د/ منير باشا

دكتور منير باشا

+ من مواليد ١٩٣٧/٤/٦
+ تخرج فى كلية الطب عام ١٩٦٦
+ منذ الطفولية كان « يعرف الكتب المقدسة» (٢ تى٣: ١٥).
+ تزوج في فبراير ١٩٧٨من الدكتورة تريزا الببلاوي وهي أخت فاضلة وخادمة للرب.
+ له ثلاث بنات يحببن الرب ويخدمنه.
+ هاجر إلي الخارج (نيوزيلاندا وأمريكا) عام ١٩٩٦.
+ له عيادته الناجحة ومع هذا كان يخدم الرب معظم وقته.
+ امتدت خدماته إلي الجميع كأغصان ارتفعت فوق حائط (تك٤٩:٢٢)
+ لم تمنعه حوائط الطائفية أو الملة فخدم بين الجميع وصولاً إلي المورمون وشهود يهوه والسبتيين .. وكان له أصدقاء من كل هذه الطوائف.
+ كان حلقة وصل بين جميع المؤمنين من جميع الطوائف المسيحية.. وكان سبباً في تقريب وجهات نظرهم .. وتجميعهم معاً بروح المحبة .. وتشجعيهم على حضور جميع الاجتماعات دون تفرقة .. وكان قدوة للجميع في ذلك.
+ خدم في مصر ونيوزيلاندا وأمريكا والنمسا وقبرص وألمانيا.
+ كانت خدماته تبشيراً للخطاة .. وتشجيعاً للمؤمنين.. وحثاً لهم على الإكثار في عمل الرب كل حين (١كو١٥:٥٨).
+ كان شجاعاً في تبكيت المخطئين .. ولكن في وداعة نادرة ، كانت تخجلهم من أنفسهم وتجعلهم يتأثرون فيطلبون منه الصلاة من أجلهم.
+ عاش منكراً لذاته تماماً .. حاملاً صليباً اختيارياً، اختاره لنفسه، من التواضع والزهد والصبر والجَلَد والقدرة على تحمل الشدائد.
+ كاد أن يكون ناسكاً (رغم يسره المادي) ، حتى أنه أثناء تناوله الطعام

كان لا ينظر إلي ما هو موضوع على المائدة (مجرد نظر) بل يخفض رأسه ناظراً إلي الطبق الذي أمامه فقط.. وبالكاد يأخذ القليل من الكثير الموضوع على المائدة.. والذي يقدمه له الآخرون.

+ رغم تجواله في بلدان كثيرة في العالم .. وكونه يستطيع أن ينتقى أفخر الملابس من أرقى المحلات العالمية ويقتنيها من ماله الخاص.. إلا أنه ارتدى من الثياب أبسطها نوعاً .. وبالعدد الأدنى الذى يسمح له فقط بتغييرها .. فانطبق عليه المكتوب « إن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما « (اتى٦:٨).

+ دون أن يشعر أحد . أو يعرّف شماله ما تفعل يمينه(مت٦:٣). كانت معظم أمواله ليست له .. بل للرب.

+ كان أحد أصدقائه يداعبه دائماً بقوله : «أمثالك مكانهم الدير .. أدخله ودع إقناع زوجتك عليّ» .

+ انطبقت عليه بعضاً من أبيات قداسة البابا شنودة الثالث الشعرية:

له أسلوب نزيه طـــاهر ولســـان أبيض الألفاظ عفّ

لم ينل بالذم إنساناً ولم يذكر السوء إذا ما حلّ وصف

+ كان بيته كقلبه مفتوحاً لعمل الرب .. وبعد انتقاله حملت زوجته الراية، وكرست بيتها المتسع في أمريكا لخدمة الرب.

+ ولنقرأ شهادة زوجته التقية عنه :

(كان إنساناً بمعنى الكلمة .. مسيحياً بنسبة مليون في المية وليس مية في المية فقط.. يحب الرب من كل قلبه ويضحي من أجله بكل غال ورخيص..ونفس هذه المحبة كان يكنها لي، ولبناته.. حتى أنه كان مستعداً أن يضحي بحياته من أجلنا.. كانت نفسه واحتياجاته هي آخر ما يفكر فيه .. لم يقل كلمة سوء في حق أحد .. حتى كلامه العادي كان قليلاً جداً .. وكان كتمان أسرار الخدمة يحيرني أحياناً , أنا زوجته .. فكان يخبرني بأنه يقول لي فقط ما يلزمني معرفته .. أما أسرار مخدوميه فليس من حقه أن يخبر بها أحداً .

ولو كانت زوجته .. لدرجة أنني اكتشفت بعد انتقاله ثماراً كثيرة من النفوس التي جاءت إلي المسيح عن طريقه ولم يخبرني عنها .. إنما هم الذين أتوا للتعزية في انتقاله وشهدوا بأنهم أولاده في الإيمان}، وأضافت: {أغلقت الناس أبوابها في وجه طوائف المورمون والسبتيين وشهود يهوه والشواذ، لكنه أحب الجميع ولم يغلق بابه في وجه أحد بل كان يربحهم بمحبته حتى أن كثيرين منهم أتوا للمواساة في انتقاله} واختتمت حديثها قائلة: {لقد خسرته الكنيسة المجاهدة ، لكن ربحته الكنيسة المنتصرة}.

+ كان بعض اليهود من أخلص أصدقائه مع أنهم كانوا يستنكفون أن يسلموا عليه باليد طبقاً لطقوسهم .. ومع هذا كان يزورهم (دون سلام باليد) .. فكانوا يندهشون ويتعجبون من هذه المعاملة التي قابلت نفورهم منه (ومن غير اليهود عامة) بكل محبة وصبر .. فنال ثقتهم واحترامهم الفائق .

+ لذلك لم يكن غريباً أن يشترك في تشييع جثمانه لفيف من القمامصة والقساوسة والخدام من شتى الطوائف .. كما اكتظ حفل وداعه بمشاركين ومعزين من كافة الملل والطوائف والأديان.

+ كان انتقاله للفردوس يوم ٢٠٠٨/٤/٢٦.. فخسرته فعلاً الكنيسة كما قالت زوجته .. وخسره جمهور كبير من المؤمنين في كل البلدان التي زارها وخدم فيها، لاسيما مصر موطنه الأول وأمريكا موطنه الأخير.. إلا أن إبناً لإبراهيم(غل٣:٢٩) مثله , عاش غريباً مبتغياً وطناً أفضل أي سماوياً , لا يستحي الله أن يدعى إلها لأمثاله لأنه أعد لهم مدينة (عب١١:١٦) .. عاش الراحل العزيز ينظرها من بعيد .. ويصدقها .. ويحييها .. وينتظـرها (عب١١:١٣) .. على رجاء إدراكها مع جميع الذين ينتظرونها مثله .. تاركاً لهم قدوة (١تى ٤:١٢) نادرة وفريدة.

تعقيب

في العدد الحادي عشر من هذه السلسلة، بعنوان «**مجاهد في الجبانة**» .. الصادر في يناير ٢٠٠٢، لجأ الكاتب إلى تعديل من خياله هو في وصف المقبرة الفرعونية التي سقط فيها مجاهد، وذلك لزوم الدراما.. **فتخيل البئر التي سقط فيها تؤدي إلى حجرة للدفن .. ثم تخيل وجود سلم بعدها** .. وذلك حتى يستخدمه مجاهد في الخروج، في هذه القصة الخيالية.. ولما لم يكن هذا التصميم موجوداً في مقابر سقارة، لذلك فقد أشار الكاتب في الملحق رقم (١) من العدد المذكور إلى أن هذا التصميم - أو بالحري التعديل الخيالي الذي أدخله إلى المقبرة- هو من صنع خياله هو .. وذلك التزاماً بالأمانة العلمية.

إلا أن الكاتب كان يتساءل بينه وبين نفسه قائلاً: ما دامت الطبيعة الجيولوجية لهضبة سقارة، مع النظريات الهندسية لحفر الأنفاق، مع العقائد الدينية للقدماء، مع الاحتياطات الأمنية في ذلك الوقت، تسمح بعمل هذا التصميم، فلماذا لم يفعلها القدماء.. وينشئوا المقابر بهذا التصميم؟ .. وذلك تسهيلاً للعمال الذين حفروا المقبرة (لا لمجاهد).

ثم قال في نفسه.. ولم لا؟.. لعلهم فعلوها.. ولم يتم اكتشاف ذلك بعد.

إلى أن نشرت جريدة المصري اليوم بعددها رقم ١٧٦٥ بتاريخ الاثنين

١٣ أبريل ٢٠٠٩ (أي بعد سبع سنوات من صدور العدد المذكور من هذه السلسلة) إلى أنه قد تم اكتشاف جبانة منحوتة في الصخر في «**اللاهون - فيوم**» (على امتداد هضبة سقارة) تحتوي على ٥٣ مقبرة.

وقال «**فاروق حسني**» وزير الثقافة: أن هذه المقابر تختلف في تصميمها المعماري، حيث توجد منها مقابر ذات بئر تؤدي إلى حجرة الدفن.... **وهناك مقابر ذات بئر بها درج (سلم) منحدر** (من سطح الأرض) **يؤدي إلى غرفة واحدة للدفن**....»

وأضاف أمين عام المجلس الأعلى للآثار د. **زاهي حواس**: أن أعمال الحفائر أسفرت عن أن كل مقبرة بها حجرة للدفن بداخلها تابوت خشبي ملون داخله مومياء لصاحب المقبرة....»

وهذا التصميم بهذا الوصف - **واقعياً** - يوافق تماماً وحرفياً ما سبق ووصفه الكاتب- **خيالاً**.

المراجع

•تراجم متعددة للكتاب المقدس.

•قواميس متعددة للكتاب المقدس.

•مراجع روحية :-

تفاسير كنيسة الأخوة، وكنائس أخرى، للشواهد الكتابية الواردة في هذا العدد .

انطلاق الروح — **قداسة البابا شنودة الثالث**

•مراجع أخرى :-

أعمال الدكتور **طه حسين** جـ ١٠

حديث الصباح والمساء — **نجيب محفوظ**

أحلام فترة النقاهة — **نجيب محفوظ**

مذكرات **سعد زغلول** جـ ٨

الآثار المصرية القديمة في وادي النيل — **جيمس بيكي**، ترجمة لبيب حبشي وشفيق فريد

تاريخ وحضارة مصر القديمة — **د. عبد الحليم نور الدين**

تدمير السياحة المصرية — مقال: **د. وسيم السيسي**

في هذا العدد :

- هل اختار الله أناسا للحياة الأبدية ؟
- هل اختار الله أناسا للهلاك الأبدي ؟
- إن مارس الله سلطانه في الاختيار، فأين عدالته ؟
- إن طبق الله عدالته فأين رحمته ؟
- النعمة كتعريف .. والنعمة كمبدأ
- غنى النعمة .. ومجد النعمة

تحت الطبع

- الدفترخانة
- الشاويش بركات
- الورقة الأخيرة
- سر الله

سلسلة ملء الجباب
تطلب من
كنيسة الاخوة
شارع الدري - ميدان الجيزة
ومن المكتبات المسيحية